دار الشروق

كريم ثابت

طلاق امبراطورة

طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية
القصة الكاملة والأسرار الخفية

طلاق امبراطورة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk com

كريم ثابت



طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية
القصة الكاملة والأسرار الخفية

دار الشروق

كلمة للمؤلف

لما أعلن طلاق جلالة شاه إيران الحالي والإمبراطورة فوزية لم يعرف الناس أسبابه، بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية، وفوزية نفسها لم تعرفها كذلك! فهذه الفصول تميط اللثام لأول مرة عن هذه القصة الفريدة في نوعها.

وهي قصة تبدو في بعض أجزائها أقرب إلى القصص الخيالية منها إلى القصص الواقعية.

ومع ذلك، أؤكد أنه ليس في هذا الكتاب سطر واحد من نسيج الخيال!

وفي وقائع هذه القصة يتجلى بأجلى مظهر أنه كان في فاروق شخصيتان مختلفتان تتنازعان السيطرة على إرادته ومشاعره.

الفصل الأول

التقارير السرية من طهران

كان للجناح الخاص بفاروق في قصر «المنتزه» بالإسكندرية شرفة تطل على جانب من الحديقة والبحر معا، ولا أعرف مناظر طبيعية كثيرة تضارع بجمالها ورونقها المنظر البديع الذي كنت أراه أمامي كلما وقفت على تلك الشرفة وسرحت الطرف في أرجاء تلك البقعة الساحرة، وكانت الليالي القمرية تعزز فتنتها وروعتها وتزيدها سناء وبهاء، فيخيل إليّ أن قطعة مختارة من خليج «نابولي» قد انتقلت إليها وارتمت في أحضانها.

ولما وصلت في تلك الليلة إلى «المنتزه» وصعدت إلى الجناح الخاص بالملك دعيت إلى الانتظار على تلك الشرفة بأمر من فاروق ريثما ينتهي من ارتداء ملابسه، فتمنيت في تلك اللحظة أن تمضي السهرة في القصر، ولم تكن هذه أول مرة سألت فيها نفسي: كيف يهجر فاروق هذه الجنة الصغيرة مع ما يمكن أن يتوافر فيها من أسباب التسلية ويؤثر عليها الأماكن التي يغشاها في المدينة؟!

غير أنه أقبل عليّ «بالروب دي شامبر» ففرحت ورجوت أن يكون قد عدل عن الخروج من القصر فنستمتع بسهرة هادئة، وخصوصا أن القمر كان بدرا في تلك الليلة، فزاد ما حولنا فتنة وضياء.

وصافحني فاروق صامتا، ولم يرد على ما وجهته إليه من تحية، ولم تفتر شفتاه عن ابتسامة ما، فأدركت أن هناك ما يهمه ويزعجه، فقد كانت هذه هي عادته في لقائي متى كان مشغول البال، قلقا.

واتجه إلى سور الشرفة، واتكأ عليه، وحدّق في الفضاء كمن يتأمل في شيء بعيد يسترعي انتباهه، ولكن نظراته وملامح وجهه كانتا تنمّان على أنه شارد

الذهن، حزين، ثم أخذ يتأوه بصوت مسموع كالمكلوم، وهو صامت كئيب لا يتفوه بكلمة واحدة.

ولما لم أكن قد رأيته على هذه الحالة قبلا، ولم أسمعه يتأوه قط، خطر لي أن أقطع عليه صمته، وأن أسأله عما يقلقه ويحزنه. غير أني كنت أعلم من مخالطتي له أنه يحب في بعض الأحوال أن يكون هو البادئ بالكلام، فاحترمت صمته، وانتظرت.

وكان الهدوء والسكون يخيمان على حدائق «المنتزه» في تلك الساعة، فلم تكن الأذن تسمع سوى صوت الأمواج وهي تداعب الصخور وتعانقها، وصوت مسامير حذاء الجندي الذي يسير تحت الشرفة ذهابا وإيابا؛ ليقاوم ضجره ويطرد نعاسه، فبدت لي كل دقيقة كأنها حقبة من الزمان، ولأول مرة شعرت في ذلك المكان بوحشة حجبت عني جماله وسحره، ولم يلبث هذا الشعور أن اقترن بانقباض شديد إذ أيقنت أن فاروق يطوي صدره على نبأ خطير، وأن هذا النبأ ينذر بشر مستطير!

وحاولت أن أعيِّن نوع هذا الشر، فعرضت في ذهني جميع «الموضوعات» التي يحتمل أن تُنشئ له هذه الأزمة النفسية فلم أجد بينها موضوعا واحدا يعلل وجومه ويفسر اضطرابه.

ففي حياته الخاصة كانت القطيعة تامة بينه وبين زوجته فريدة لا ينقصها سوى إمضاء وثيقة الطلاق، فلا يمكن إذن أن تكون علاقاته الزوجية مصدر هذه الكآبة الفجائية.

وكانت صحة بناته على ما يرام، فلا شاغل له إذن من هذه الجهة، ولا همَّ.

أما في حياته العامة، فكان على وفاق مع الوزارة القائمة، وليس في أفق السياسة الداخلية أو الخارجية ما يزعجه أو يقلقه.

واستبعدت طبعا كل تفكير فيما يسمونه «شئون القلب» فقد كنت أعلم أنه ليس من طراز الرجال الذين يهبون قلوبهم، وأنه لن يردد يوما ما قاله دوق وندسور حين قرر التخلي عن العرش وهو أنه لا يستطيع أن يعيش من غير المرأة التي يحبها!

فما الذي يؤلمه إذن، وما الذي يفجعه؟

وما المصاب الذي يدمي قلبه حتى يتأوه بهذه الكيفية وحتى يبدو أمامي

مستكينا وحزينا بهذه الصورة غير العادية، وقد تركته في اليوم السابق ممتلئا نشاطا وقوة وحبورا ؟!

وإذا هو يقول بالفرنسية فجأة: إن شقيقتي فوزية تعيسة جدا.

فاه بهذه العبارة من غير أن يلتفت إليّ، واستمر يحدق في الفضاء كأنه يخاطب القمر ولا يخاطبني.

وأذهلني ما سمعته منه، ولم يسعفني الفكر في تلك اللحظة بعبارة مناسبة أقولها، فلزمت صمتي، واكتفيت بالاقتراب منه، وأرهفت سمعي، فإذا هو يقول بالعربية: «أنا المسئول»! وسكت.

ثم عاد بعد قليل وكرر قوله: أنا المسئول! أنا المسئول!

فقلت له عندئذ: هون عليك يامولانا وحدثني عما يتعبك.

فقال: لاتقل عما يتعبني بل قل عما يحز في قلبي!

فقلت: إني لم أر مولانا على هذه الحالة قط... فما الذي جرى... وهل هناك شيء لا يمكن معالجته؟

فقال: إن الذي يلوعني هو شعوري بأننا أمام حالة يستحيل معالجتها... فاسمع ما بلغني... ولكن لنجلس أولا، فإني متعب وسيكون حديثنا طويلا.

وجلس، وأشار إلى كرسي مواجه له فجلست عليه، وضغطت على جرس قريب مني، فلمح حركتي فقال: ماذا تريد؟ قلت: سأطلب لك فنجان قهوة.

فقال: لا أريد أن أشرب شيئا أو آكل شيئا.

فقلت: إن قليلا من القهوة ينعش مولانا ويعينه على الحديث.

وكأنما شقّ عليه أن يسمع كلمة «يعين» فقال: أنا حزين ولكني لست ضعيفا، وسترون جميعا أنني لست ضعيفا!

واستهل حديثه عن شقيقته بقوله: إن فوزية تعيسة جدا، وتعيش عيشة قاسية، عيشة كلها مرارة، وكلها نكد، وكلها شقاء، وكلها بكاء، وأنا المسئول عن ذلك!

فقلت : لنترك الآن الكلام عن المسئولية، فالحديث فيها لايعالج الموقف، ولنبحث الأخبار التي وصلت إلى جلالتك لعلنا نهتدي إلى ما يمكن عمله.

فقال : لقد لخصت لك الأخبار التي بلغتني حتى الآن. إن فوزية تعيش في جحيم. هذه هي الأخبار!

فقلت : وهل أنت واثق من صحتها؟

فقال : ثقة تامة!

فقلت : هل هي من سفير مصر في إيران؟

فقال : لا . . . ولا يمكن للسفير أن يعرف المعلومات التي تضمنها التقرير السري الذي تلقيته!

فقلت : ألا يحسن سؤال السفير عنها لربما أمكنه أن يحققها، ثم يوافي جلالتك بنتيجة تحقيقه، فيكون لديك سند يعتمد عليه.

فقال غاضبا : قلت لك إن لي ثقة تامة بمصدر التقرير!

فقلت : اعذرني يا أفندم إذا عدت إلى الكلام في هذه النقطة، فالموضوع خطير جدا، ودقيق جدا، ولذلك أعتقد أنه يتعين علينا أن نستوثق من صحة هذه الأخبار قبل أن نخطو أي خطوة، فإن الأمر أخطر من أن.

فلم يطق إلحاحي وقاطعني قائلا : أنا أعلم غرضك. . . أنت تريد أن تعرف اسم كاتب التقرير ولكني لن أريحك، ويكفيك أن تعلم أنه شاب مصري مقيم في طهران ويتصل بالإمبراطورة عن طريق آنسة مصرية مقربة إليها. . . فهل يقنعك ذلك؟

فقلت : يستفاد من هذا الكلام أن الشاب صاحب التقرير استقى معلوماته من آنسة متصلة بالإمبراطورة، فهل يفهم من ذلك أن الإمبراطورة هي التي أرادت أن يبلغ جلالتك حديثها عن حالتها ؟

فقال : لم يقل في تقريره إنها هي التي طلبت منه ذلك، وإنما قال إنه رأى من الواجب عليه أن يرفع إليّ الأخبار التي سمعها ولم يساوره شك في صحتها لإيمانه بمصدرها. . . إنه يؤمن بالمرأة المتصلة بالإمبراطورة إيمانه بنفسه.

فقلت: المهم أنه ليست الإمبراطورة هي التي حاولت أن تبلغ جلالتك هذه الأخبار عن طريقه.

فقال: وماذا تريد أن تقول بذلك؟

فقلت: أود أن أقول إنه لو أرادت الإمبراطورة أن تبلغ هذه الأخبار لجلالتك لأفضت بها إلى سفير مصر وكلفته إبلاغها لك.

فقال: ربما لم يتيسر لها ذلك.

فقلت: وهناك زوجة السفير... كان يمكنها أن تعطيها رسالة سرية لجلالتك.

فقال: ربما لم يتيسر لها هذا أيضا... وأنت لا تعرف فوزية... إنها أعجز من أن تلجأ إلى أي حيلة من هذا القبيل... وحتى لو أتيحت لها الفرصة لمنعتها أنفتها من الإفضاء بشكواها إلى السفير أو إلى زوجته!

فقلت: إذن جلالتك تطلب أن نصدق الأخبار التي وصلت إليك اليوم كأنها أخبار رسمية ثابتة لاداعي لتحقيقها.

فقال: إن الخبر الخاص بمرض فوزية ليس جديدا عليّ، فإني أعرف أنها كانت مريضة وأنها ضعيفة جدا.

فقلت: من المحتمل جدا أن تكون قد مرضت، ولكن كونها مريضة أو كانت مريضة شيء. وكونها تعيسة وشقية شيء آخر.

فقال: إني لا أفهم مطلقا لماذا تصر على عدم تصديق أنها تعيسة وشقية.

فقلت: إني لا أصر على شيء! وإنما أحب أن أستوثق أولا من صحة هذه الأخبار وخصوصا أن الموضوع خطير ودقيق كما لا يخفى على جلالتك.

فقال: وكيف يمكننا أن نستوثق من صحتها؟

فقلت: هذا ما سأفكر فيه إذا سمحت لي جلالتك بيومين، فإني مضطر أن أكون غداً في القاهرة لثمان وأربعين ساعة.

فقال: أرجو أن تعود إليّ بخطة عملية، فإني لا أستطيع أن أترك فوزية بهذه الحالة... أنت لاتعرف مقدار حبي لها.

فقلت: يمكنني أن أتصوره يا أفندم.

فقال: مهما تصورت ومهما تخيلت فلن يمكنك أن تدرك مبلغ حبي لها وعطفي عليها، ولذلك لا يمكنك أن تقدر اللوعة التي أشعر بها الآن... إني منذ اطلاعي على التقرير الذي تلقيته اليوم أحس أن في قلبي جمرة، وثق أن جذوتها لن تخبو حتى أطمئن على فوزية... ولاتنس أننا نشأنا معا وترعرعنا معا. ثم إنك لاتعرفها.

فقلت: فعلا لم أتشرف بمعرفتها.

فقال: إنها ملاك بأخلاقها وطباعها... ولم تغتر يوما بجمالها ومركزها، فكانت على الدوام مثال البساطة والتواضع... وهي علاوة على هذا كله هادئة بشكل غريب وليست مثل.

وقطع كلامه فجأة ليشعل سيجاره.

فابتسمت وقلت: مثل شقيقتها فائزة.

فابتسم لأول مرة في تلك الليلة وقال: الحقيقة أنني أردت أن أقول «وليست مثلي»، والواقع أنها من هذه الناحية تختلف اختلافا تاما عني وعن شقيقاتها جميعا.

وعاد يقول: ومما يزيدني حسرة وألمًا أنني أنا المسئول عن زواجها!

ثم استطرد يحدثني عن ظروف زواجها، فقال: كانت فوزية «خام» جدا وهي فتاة، ولاتعرف عن الحب إلاّ اسمه، ومن المحقق أن حديثها مع أي شاب عرفته قبل زواجها لم يجاوز عبارات التحية... ولم يكن لها في الزواج أو في الرجل الذي تود أن تكون زوجة له رأي معين، فلما كاشفتها بفكرة زواجها من الشاه (وكان يومئذ وليا للعهد) قالت لي بهدوئها المعتاد: «إن كنت تريد مني أن أتزوج به فليكن ما تريد» فقلت: «لا إنني أود أن يتم هذا الزواج ولكني لا أجبرك عليه، إن كنت لاتميلين إليه» فقالت: «ما دمت أنت تراه مناسبا فلابد أن يكون كذلك» ثم أطلعها على صورته، فابتسمت وقالت: «إني لا أعرفه ولا أعرف غيره ولكني أعتمد على رأيك وأعمل به» فقبلتها، وهنأتها، ورجوت لها زواجا سعيدا موفقا، وأبلغت الشاه الكبير موافقتي على المشروع.

ولما أنهى حديثه عن ظروف زواج فوزية من الشاه؛ قلت له: ولكن ألم توافق فائزة على زواجها من محمد علي رءوف بالطريقة نفسها؟

فقال: إنني لم أخف على فائزة يوما واحدا. . . إنها ليست كفوزية. . . إن فوزية بسيطة وعاقلة وتتحمل وتسكت وترضخ. . . أما فائزة فقوية، وعصبية، وتعرف ما تريد، ولا يستطيع زوجها «أن يمشي لها على طرف»!

ثم أخذ يقص عليّ قصة زواج فائزة من محمد علي رءوف.

ففي ذات يوم تلقى من إحدى «أميرات» الأسرة أن الشاب محمد علي رءوف يلتمس القربى منه ويرجو أن يظفر بيد «الأميرة» فائزة.

وأطنبت «الخاطبة» في وصف أخلاق العريس وامتدحت سيرته وأثنت على علو ثقافته وسمو تربيته، وقالت: إن والده من أسرة تركية عريقة، وإن والدته من «أميرات» البيت العلوي. فهو إذن جدير بمصاهرة جلالته.

ولم يكن فاروق وشقيقاته يعرفون محمد علي رءوف، ولو شكلا، فطلب فاروق مذكرة عنه، ورغب في أن تكون مصحوبة بأحدث صورة فوتوغرافية له!

وكان رءوف يقيم يومئذ في سويسرا، فوصلت المذكرة بعد أيام متضمنة أنه ابن فلان وفلانة وأنه ولد سنة كذا وأنه يدرس العلوم السياسية، ويهتم بالحفريات الأثرية، وأنه محبوب من زملائه وأرفقت المذكرة بالصورة الفوتوغرافية المطلوبة!

ووجد فاروق المذكرة مقتضبة جدا، ففكر في طلب بيانات إضافية عنه «ولم تكن ثروته هي التي تهمني فقد علمت أنه فقير وأن موارده محدودة، فلم أر في ذلك مانعا يحول دون زواجه من شقيقتي ما دامت هي غنية وتستطيع أن تسعفه بثروتها. وإنما أخلاقه هي التي كانت تهمني!».

غير أنه قبل أن يطلب البيانات الإضافية التي فكر في طلبها خطر له أن يكلم فائزة في الموضوع، وأن يريها صورة رءوف فقد «لا يعجبها شكله» وفي هذه الحالة يقال للأميرة الوسيطة «مفيش نصيب ونوفر على أنفسنا تعب البحث والتحري».

وألقت فائزة نظرة على الصورة الفوتوغرافية التي وضعها أمامها ثم فاجأته بقولها إنه يعجبها وتشعر بأنها تستطيع أن تتزوج منه!

وكان ذلك فاتحة الإجراءات التي انتهت بعقد قرانهما .

فقلت له : إني أستغرب كيف أن فائزة ، مع ما نعرفه عن أخلاقها وطبائعها ، قبلت أن تبني حكمها على صورة فوتوغرافية .

فقال : لا تنس أنها سمعت كذلك حديث الأميرة الوسيطة عنه .

فقلت : كل هذا لا يغير من أنها وافقت على الزواج منه «غيابيا» .

فقال : هذا ما حدث . . . ولم أسمع بعد ذلك أنها ندمت على قرارها .

فقلت : من حسن الحظ . . . ولكني مع ذلك لا أرى كيف أن أميرة بجمالها وثقافتها وثرائها ، وأخلاقها وطبائعها توافق على الزواج من شاب لم تره ولم تعرفه ، بهذه السهولة وبهذه السرعة ، وخصوصا أنه لم يكن هناك ما يضطرها إلى قبوله «بهذه الكيفية» . . . كان يمكنها على الأقل أن تقول إنها تود أن يتاح لها فرصة لقائه ومعرفته قبل أن تقرر قرارها النهائي بشأنه .

فقال : لا أخفي عليك أنني أنا نفسي كنت أتوقع أن تقترح ذلك ، فلما فاجأتني بالقبول فورا ؛ فكرت في الباعث لها على هذه المجازفة ؛ فأدركت ما جال في خاطرها وعذرتها على تعجلها في قرارها . . . أظن أنك لا تفهمني .

فقلت : لا يا أفندم .

فقال : أمي هي السبب !

وسكت ، فأطرقت ولم أرفع إليه نظري ، وانتظرت أن يمضي في حديثه من تلقاء نفسه .

ولما استأنف الكلام قال : لقد جرت أمي على معاملة شقيقاتي معاملة صارمة مقرونة بالقسوة ، وهي تملي عليهن مشيئتها باستبداد ، وتطالبهن باحترامها والخضوع لها بلا قيد ولا مراجعة . والويل لمن ترفع صوتها بالشكوى ، فقد لا تتورع عن شتمها وصفعها . . . وطالما سمعت شقيقاتي ـ ما عدا فوزية طبعا ـ يشكين من كيفية معاملتها لهن ، ومن القيود التي تفرضها عليهن . . وأعتقد أن فائزة سئمت هذا النوع من المعيشة ، فما كادت تسمع أن هناك عريسا يطلب يدها حتى رأت في زواجها

الخلاص الذي كانت تلتمسه، فوافقت على رءوف بلا تريث ولا تردد، وخصوصا أن صورته لم تنفرها منه. . . هذا هو تعليلي للمسلك الذي سلكته فائزة!

وهنا قال بصوت متهدج حزين: يظهر أن القدر كتب لي ولشقيقاتي أن نكون أشقياء. . . وأنا شخصيا على كل حال أشقى جدا مما قد يظن الناس!

ولم ينتظر مني تعليقا على حديثه، بل قال: لقد أطلت عليك الكلام، ولكني كنت في حاجة إلى التخفيف عن نفسي. وقد سمعتك تقول إنك ستسافر غدا إلى القاهرة، فانصرف الآن لكي تستطيع أن تنهض مبكرا. . . ولاتنس مهمتك، وانس ما سمعته على هامشها!

فودعته بما وفقت إليه من عبارات مشجعة مناسبة للمقام.

وعُدت إلى الفندق، وأنا أفكر طبعا فيما سمعت.

ولم تحتل أخبار «الإمبراطورة» فوزية المكان الأول في تفكيري، فقد كنت أعرف شيئا غير يسير عن التقارير «السرية» التي كان فاروق يتلقاها من مصادر مختلفة، وأعرف حقيقة «خطورتها» واستعداده الدائم للتهويل «بأسرارها». . . ولذلك قررت ألا أشغل بالي مقدما بمضمون التقرير الذي وصل إليه من طهران، بل أرجئ التفكير حتى تظهر لي نتيجة التحقيق الأول الذي عقدت النية على إجرائه في بعض الدوائر الأجنبية بالقاهرة.

وإنما أخذت أفكر في فائزة وفي ظروف زواجها، ولم يكن قد انقضى عليه سوى فترة قصيرة من الزمان! فمن يصدق أن فائزة الأميرة الشابة الجميلة، المرحة، ذات الجاه والثراء، قد اختارت زوجها اعتمادا على صورة. . . واتكالا على حديث وسيطة؟!

ولم أدر هل أصدق ما أفضى به إليّ «فاروق» عن الباعث لها على التصرف الذي تصرفته. . . أم لا أصدقه؟!

وكنت لا أزال أقلب حديثه المحير على جميع وجوهه حين تغلب عليّ النعاس، فنمت وأنا أقول لنفسي: لوعرف الناس أحوال أصحاب القصور على حقيقتها!

انتهزت فرصة وجودي في القاهرة فزرت بعض المفوضيات الأجنبية التي كان لي

فيها أصدقاء تدور الأحاديث بينهم وبيني بصراحة، واستطلعتهم أخبارهم ومعلوماتهم عن الإمبراطورة فوزية وحياتها في طهران وعن نوع العلاقات القائمة بينها وبين زوجها الشاب.

وأظهرت لي تحرياتي أن الأسرة المالكة الإيرانية اغتبطت اغتباطا عظيما بزواج ولي العهد من فوزية، وأنها رحبت ترحيبا حارا، وأن الشاه الوالد ـ رضا بهلوي ـ أحبها حبا جما وأحاطها بعنايته وحنانه، وأنه بلغ من شدة تعلقه بها وحدبه عليها أن أضحى يتفاءل بوجودها بالقرب منه، ويحرص على أن تكون في مقدمة الجالسين حوله إلى المائدة ساعة غدائه، حتى أنه لما دخل حجرة الأكل يوما وسأل عنها وقيل له إنها متخلفة لوعكة طارئة قطب حاجبيه واستغنى عن غدائه وعاد إلى مكتبه، ولم يهدأ له بال حتى أبلغوه أنها استردت عافيتها.

وكأنما أراد أن يساعدها على التأهب لليوم الذي يخلفه فيه زوجها على العرش فكان يقابل الوزراء أحيانا بحضورها، ويناقشهم في شئون الدولة على مسمع منها!

هذا من جهة الوالد، وقد كان الوالد «كل شيء» في إيران كما هو معلوم!

أما من جهة ولي عهده فإن جميع الدلائل كانت تدل على أنه يحب عروسه، ويقدرها، ويحترمها، وأنه يبذل جهده لينسيها غربتها وليعودها على حياتها الجديدة في وطنها الجديد!

ولما ارتقى العرش، وغاب نفوذ الشاه الوالد عن القصر والبلاد، لم يطرأ تغيير ما على علاقات الشاه الشاب بزوجته، بل استمر الهناء والوفاق يبسطان أجنحتهما على حياتهما الزوجية وقد زادها توثقا تعلقهما بالابنة التي رزقاها.

تلك كانت خلاصة المعلومات التي وقفت عليها في الدوائر التي زرتها!

ولم أقتنع بصورة سريعة عابرة، بل كنت في كل مكان أسأل محدثي، هل هو واثق من أن الهناء والوفاق مابرحا يسودان علاقات الشاه والإمبراطورة؟

وفي كل مكان كان محدثي يؤكد لي أنه لو نشأ خلاف بين الشاه والإمبراطورة لما غاب أمره عن دوائر طهران الدبلوماسية، ولما كانت سفارة بلاده قد توانت في إبلاغه لحكومته.

وكانت طبيعة عملي كصحفي تمكنني من «الأخذ والرد» في هذا الموضوع على منوال لم يكن ليتيسر لي بهذه السهولة لو كنت «من كبار رجال القصر» فقط، فأمكنني بعد أسئلة وأجوبة أخرى أن أعلم أنه ليس لدى المفوضيات التي طرقت أبوابها نبأ ما يدل على أن الشاه والإمبراطورة مختلفان، أو غير متفاهمين، أو يستدل منه على أن الإمبراطورة «تعيسة وشقية».

نعم سمعت أن صحة الإمبراطورة ساءت في المدة الأخيرة بسبب مرضها ـ وقيل في بعض الدوائر أنها أصيبت بالملاريا ـ ولكني لم أسمع كلمة واحدة تنم على أن الضعف الذي تشكو منه نشأ عن حزن وشقاء . . . أو بعبارة أخرى لم أسمع كلمة واحدة تؤيد الأخبار التي تضمنها التقرير السري الخطير!!

وأفرحتني النتيجة التي أسفر عنها هذا البحث التمهيدي، ولم يدهشني ما كان بينها وبين محتويات ذلك التقرير من تناقض عجيب لأني كنت ـ كما قلت في فقرة سابقة ـ أعرف قيمة التقارير السرية التي كان فاروق يتلقاها وأعرف إسرافه في تصديق خفاياها وجناياها!

ولكني دهشت لأمر آخر . . . هو جرأة الشاب الذي بعث بالتقرير وتعرضه لموضوعه الشائك على منوال لا تقدير فيه للعواقب، سواء كان ذلك من الناحية العائلية أو من الناحية السياسية، وزادني دهشة إقدامه على إفراغ الأخبار التي حواها تقريره في صيغة لا تحفظ فيها ولا احتياط، فلم يقل مثلا، إنه يوافي جلالته بتلك الأخبار «على علاتها» لعدم استطاعته الجزم بصحتها، بل قال إنه يؤمن بالمرأة التي استقاها منها إيمانه بنفسه، فهو إذن يقطع بصحتها ويريد من الملك أن يصدقها بحذافيرها!

لماذا؟

وفجأة طاف بذهني خاطر لا أدري كيف شقّ طريقه إليه.

وإذا هذا الخاطر يقول لي: ألا يحتمل أن يكون لأحد مصلحة في أن يلقي في روع فاروق أن شقيقته تعيسة وشقية وأن يوقع بينه وبين «جلالة أخيه شاه إيران»! فكلنا يعلم المشكلات التي تواجهها إيران وما يكتنفها من مطامع دولية، وكلنا يعلم ما تعانيه بسبب المؤامرات والدسائس الخارجية، فلماذا لا تكون الأخبار التي

نميت إلى كاتب التقرير شطرًا من مؤامرة تدبر ببراعة ومهارة لإفساد الجو بين الإمبراطورة والشاه، ومن ثم مصر وإيران، تحقيقا لأغراض يتوخاها أصحاب المؤامرة ومدبروها؟!

وبعدما تأملت مليا في الاتجاه الجديد الذي اتجهه تفكيري لمت نفسي على استرسالي في الخيال، وحاولت أن أطرد هذا الخاطر من ذهني، فلم أفلح. وأخيرا اهتديت إلى حل يريح بالي: فمن جهة لا أغفل هذا الاحتمال ولا استبعده، ومن جهة أخرى لا أجعله حجر الزاوية في بحثي.

ولما عدت إلى الإسكندرية، وقابلت فاروق، لاحظت تحسنا جليا في حالته العصبية والمعنوية، وخيل إليّ أنه أكثر استعدادا لتحكيم العقل والمنطق في الموضوع الذي بات شغله الشاغل.

وحدثته عن زيارتي للمفوضيات التي تربطني ببعض رجالها صلة صداقة، ونقلت إليه المعلومات التي استقيتها منهم بإسهاب. ومع أنه كان يصغي إليّ بانتباه شديد لم يفتني أن أنوه غير مرة بأن معلومات تلك المفوضيات تناقض المعلومات الواردة في «التقرير» مناقضة تامة!

ولما أفرغت كل ما في جعبتي قال لي: ومن أين للذين زرتهم أن يعرفوا نوع العلاقات التي تقوم بين الشاه والإمبراطورة ؟

فقلت: من الطبيعي أن يكون لأخبار القصر الإمبراطوري نصيب من عناية السفراء والوزراء المفوضين الأجانب في طهران، ومن الطبيعي أن يوافوا حكوماتهم بها تباعا. . . وعند جميع الحكومات تقليد معروف، وهو أنه إذا تلقت حكومة منها تقريرا أو خبرا من إحدى سفاراتها أو مفوضياتها ورأت أن لموضوعه علاقة ببلد آخر أرسلت صورة منه إلى سفارتها أو مفوضيتها في هذا البلد لتكون على بينة منه، فمن المحقق إذن أن تتلقى المفوضيات التي زرتها من حكوماتها صورة من جميع الأنباء التي تبلغها من طهران أومن غير طهران وتعتقد أن من المصلحة أن تطلع عليها ممثليها في مصر.

فقال: مع تقديري للمجهود الذي قمت به مازلت أصدق الأخبار التي وردت في التقرير الذي تلقيته!

فقلت: ولكننا لا نستطيع أن نعتمد عليها اعتمادا كليا.

فقال: وما السبيل إلى التحقق منها؟ ألم أطلب منك أن تفكر في ذلك؟

فقلت: هناك السبيل الرسمي وهو أن يكلف سفير مصر في إيران بحث نصيب هذه الأخبار من الصحة، وأن ننتظر نتيجة بحثه وتحرياته، ولكن جلالتك لا تستصوب هذه الخطة ولا توافق عليها مع أنها الخطة الطبيعية.

فقال: أنا مقتنع بأنها الخطة الطبيعية، ولكني غير مقتنع بأنها الخطة العملية، لأني واثق من أن السفير لن يستطيع أن يعرف الحقيقة كلها... بل عندي ما يبعثني على الجزم بأنه لن يستطيع التشكيك في صحة الأخبار التي تضمنها التقرير. وهذا كل ما يمكنني قوله في الوقت الحاضر بدون أن أبوح باسم كاتب التقرير!

ولم أبد أي مجهود لمعرفة اسم كاتب التقرير. فقد لاحظت منذ حديثنا في المرة السابقة أنه لا يروم إطلاعي عليه لارغبة منه في إخفائه عني، بل لأنه كان يظن إذا أحاط بعض التقارير السرية بشيء من الغموض والإيهام عزز شأنها في نظر الذين يحدثهم عنها وأوهمهم بأن عنده مصادر سرية خاصة لا يمكنه الجهر بها لاعتبارات يقدر هو وحده خطورتها!

فقلت: ما دمت جلالتك تؤكد أن السفير لن يوافيك بجديد، فهناك خطة أخرى أرجو ألاّ أكون مخطئًا إذا قلت إن تنفيذها يكفل معرفة الحقيقة من غير أن يثير شبهة ما، ومن غير أن يفطن أحد إلى الغرض الذي ترمي إليه جلالتك.

فقال: وما هذه الخطة؟

فقلت: أن تعلن الأميرة فائزة أنها بمناسبة قرانها قررت أن تسافر إلى طهران لتزور الإمبراطورة شقيقتها، ولتقدم عريسها لجلالتها ولجلالة الشاه... وفي خلال هذه الزيارة العائلية الطبيعية سوف يتسنى للأميرة فائزة أن تتقصى كل ما يهم جلالتك معرفته عن أحوال الإمبراطورة فوزية وشئونها.

فقال: هذه فكرة حسنة... سأخاطب الآن فائزة وأطلب منها أن تحضر لمقابلتي غدا لأكلمها في الموضوع، فتتصل بفوزية وتبلغها عزمها على زيارتها، وتشرع فورا في الاستعداد للسفر إليها!

وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد رن جرس التليفون الخصوصي في حجرتي بالفندق وإذا فاروق يقول لي: تعال حالا . . . فقد وصلت إليّ أخبار جديدة!

فقلت: خيرا إن شاء الله.

فقال: سيئة جدا!

وقفل التليفون.

ولما دخلت الجناح الخاص به في القصر التقيت بأحد حلاقيه فبادرني بقوله: الحمد لله اللي سعادتك جيت. . . حاكم احنا النهارده في «ثورة»!

فسألته: من امتى؟

فقال: من ساعتين. . . من ساعتين ما شفناش الراحة دقيقة واحدة.

فقلت: وأين الشمشرجي النوبتجي؟

فقال: عند مولانا وسيخرج حالا.

وخرج الشمشرجي النوبتجي من حجرة نوم الملك وعلى ذراعيه مجموعة من الكتب، وفي اللحظة سمعنا الجرس «الخصوصي» يدق مرتين. . . وكان فاروق إذا أراد استدعاء الشمشرجي النوبتجي «دق الجرس مرة وإذا أراد استدعاء «الحلاق النوبتجي» دقه مرتين.

وما كاد الحلاق يسمع «الدقتين» حتى نظر إليّ باسما وقال: احنا في الحالة دي من ساعتين. . . واحد يطلع. . . وواحد يخش. . . في الفاضي والمليان. . . ومش عارفين إيه الحكاية. . . ثورة!

وغاب لحظة ثم عاد وهو يحمل الورق الذي كان بعض الكتب ملفوفا به وألقى به في سلة المهملات.

ودق الجرس دقة واحدة، فتركنا «الشمشرجي» وانطلق إلى حجرة النوم، فسألت الحلاق هل تغدى؟

فقال: لا هو تغدى، ولا احنا تغدينا، ويظهر أنه مش متغدي النهارده، وأن يومنا حيكون يوم.

وظهر «الشمشرجي» من خلال الباب ومعه أوراق، أمره فاروق بإرسالها إلى كبير الأمناء.

ورفع الحلاق عينيه إلى حيث كان الجرس مثبتا إلى الجدار وخاطبه بقوله: ساكت ليه؟

وقبل أن يحول نظره عنه دق مرتين متتاليتين، فقال: «أستغفر الله» ونهض مسرعا، ثم رجع بعد ثوان وسألني هل أريد فنجان قهوة ريثما ينتهي مولانا من نظر «البوستة».

ودق الجرس مرة واحدة فطرح «الشمشرجي» ما بيده من ورق وهرع إلى حجرة النوم ثم عاد منها بطائفة من المذكرات لإرسالها إلى «وكيل الديوان».

وكان من عادة فاروق أن يصفى «البوستة» دفعة واحدة، فكان بعد انتهائه من الاطلاع عليها يقول «للشمشرجى النوبتجي»: هذا لرئيس الديوان. . . وهذا وكيله. . . وهذا الكبير الأمناء. . . وهذا لكبير الياوران إلخ. . . إلخ.

أما اليوم فخرج على عادته المألوفة، وأخذ يكرر استدعاء «الشمشرجي النوبتجي» و «الحلاق النوبتجي» بلا انقطاع، فلا يكاد أحدهما ينصرف من حضرته حتى يدق الجرس في طلب الآخر، ولايكاد يصدر أمرا حتى يصدر أمرا آخر، كمن يجد في هذه الحركة، أو في هذه «الثورة» كما سماها الحلاق «متنفسا لهياج أعصابه»!

واستمر الحال على هذا المنوال فترة غير قصيرة لم ينقطع دق الجرس في خلالها ثلاث دقائق متواصلة!

ودخل فاروق فجأة الحجرة التي كنت جالسا فيها، وقد امتقع وجهه امتقاعا شديدا وبدت على قسماته علائم الانفعال والقلق.

وكأنما رأى في السلام والمصافحة مضيعة للوقت فقال لي فورا: إن خطتك لم تعد تنفع. . . أعني أن سفر فائزة إلى طهران لم يعد ينفع. . . يجب علينا أن نبحث عن خطة جديدة!

ودعاني إلى الجلوس واستأنف حديثه قائلا: لقد تلقيت اليوم تقريراً جديدا من طهران. . . من المصدر نفسه. . . وهو «ألعن» من التقرير الأول بمراحل. . . وإذا لم أعالج الموقف بسرعة فقد نواجه كارثة من أكبر الكوارث ونكبة من أعظم النكبات!

فقلت: هل أخبار التقرير الجديد خطيرة لهذه الدرجة؟

فقال: أخطر جدا مما تظن... وأخطر جدا مما كنت أنا نفسي أظن... إني حقيقة لا أعلم ماذا جرى لفوزية!... ولولا ثقتي بكاتب التقرير لترددت كثيرا في تصديق ما كتبه لي عنها... ولكن يظهر أن تعاستها وخيبة أملها ولدتا فيها بأسا وأن هذا البأس دفعها إلى سلوك أخطر المسالك لعلها تنسى الجحيم الذي تعيش فيه!

فقلت: أليس هناك تفاصيل؟

فقال: التفاصيل كلها موجودة... وخلاصتها في كلمتين أن فوزية أحبت المعلم الذي يعلمها... وتعلقت به حتى أصبح له سلطان قوي عليها! فما رأيك في هذه المصيبة؟ ولكن (إن) دعني قبل ذلك أقول لك أن ما سمعته ليس كل شيء. فقد أضاف كاتب التقرير إلى ما تقدم أن فوزية تفكر في الفرار مع المعلم إلى جهة مجهولة أملا منها بأن تجد في العيش معه السعادة التي هي محرومة منها الآن. فتصور الفضيحة العظيمة التي ستنشأ إذا أقدمت فوزية على ذلك. إن عقلي كاد يطير عند اطلاعي على هذه الأخبار! ولذلك قلت لك إن فكرة سفر فائزة إلى طهران لم تعد تنفع، فإن جميع الدلائل تدل على أن الحالة أسوأ مما قدرنا، وإن الأحداث تسير بسرعة لا تسمح لنا بمواجهتها بخطط بطيئة، فإلى أن تسافر فائزة إلى طهران، وإلى أن تصل إليها، وإلى أن تعود منها، وإلى أن تبلغني نتيجة بحوثها ومشاهداتها، وإلى أن نتخذ عندئذ التدابير التي تقتضيها الحالة. تكون الكارثة قد وقعت!

فقلت: أية كارثة يا أفندم؟

فقال: إما موت فوزية أو فرارها مع المعلم. يلوح لي أنك لاتقدر خطورة الموقف لأنك مصمم على التشكيك في صحة الأخبار التي جاءتني!

فقلت: عندي كلمة بسيطة أرجو من جلالتك أن تسمعها... فإما أن تكون الإمبراطورة غير مراقبة وإما أن تكون مراقبة، فلو كانت غير محاطة بمن يرصد حركاتها لاستطاعت حتما أن تبلغك رسالة سرية عن الجحيم الذي قيل إنها تعيش فيه، سواء كان ذلك عن طريق سفير مصر في طهران أو عن طريق زوجته، أما لو كانت محاطة بعيون تسجل تصرفها وتتعقب خطواتها لما خفي على الشاه سر المعلم الذي يقول كاتب التقرير إنه استهواها.

فقال مدافعا عن صاحب التقرير: إن كاتب التقرير أبلغني ما سمعه. . . وهو يستحق الشكر على كل حال.

فقلت: إذا كان كاتب التقرير قد سمع ما ذكره في تقريره، فلابد إذن أن يكون هناك من يعرف ما بين الإمبراطورة وذلك المعلم، فهل يعقل في هذه الحالة ألاّ يكون الشاه على علم بالأمر؟! ثم إن مولانا نفسه أكد لي أن الإمبراطورة أبسط من أن تلجأ إلى الحيل والخطط الخفية، فكيف يستقيم ذلك مع ما يعزى إليها الآن؟! وهل المرأة التي تعجز عن إبلاغ شقيقها رسالة سرية هي المرأة التي تستطيع أن تهرب مع رجل غريب وأن تكفل سلامة خطتها؟! لا تؤاخذني يامولاي إذا قلت لك إنني لا أصدق هذه الرواية كلها!

فقال: وما غرض كاتب التقرير من موافاتي بها؟

فقلت: لا أدري. . . وقد يظهر لنا السبب يوما ما.

فقال: ثق أن كاتب التقرير مخلص وأنه لاغرض له بتاتا. . . وهو يرسل إليّ هذه الأخبار بدافع من إخلاصه لي ولبلاده لا لغرض آخر مطلقا!

ولما لم أعقب على عبارته المتقدمة، قال: ولماذا لاتقول إن الشاه على علم بما بين فوزية وذلك المعلم؟

فقلت: إذا صح ذلك فلماذا يسكت ولا يتخذ إجراء ما؟

فقال: من المحتمل أن ينتظر فرصة مواتية ليضرب ضربته. . . لماذا لا ينتظر ساعة هروبها مثلا فينقض عليهما؟!

فقلت: وماذا يكسب من هذه الفضيحة؟

فقال: الانتقام!

فقلت: على حساب كرامته؟ . . . غير معقول يا أفندم.

فقال: إذن أنت لاتصدق هذه الرواية كلها؟

فقلت: لا أصدق كلمة واحدة فيها.

فقال: أرجو أن تثبت لي الأيام أنك مصيب في رأيك، فإن التقرير الذي تلقيته اليوم «كاد يجنني»!

فقلت: اطمئن يا أفندم فإن الإمبراطورة لن تهرب مع أحد. إني أؤكد أن رواية وجود علاقة بينها وبين ذلك المعلم رواية مختلقة من أساسها لغرض لانعرفه. إن إيران آخر بلاد في العالم يتيسر فيها لعلاقة كهذه أن تنشأ وأن تظل سرا مجهولا!.

فقال: إن شاء الله يصدق كلامك. وعلى كل حال وبقطع النظر عن هذه الرواية لا أرى ضررا في أن أعمل شيئا سريعا لأعرف حقيقة حالة فوزية ونوع الحياة التي تحياها في طهران.

فقلت: هل فكرت جلالتك في تدبير معين؟

فقال: فكرت في «قلب» فكرة سفر فائزة إلى طهران. فبدلا من أن تسافر فائزة إلى طهران لماذا لا نقترح على فوزية أن تستأذن من الشاه في القدوم إلى مصر للاجتماع بشقيقتها بمناسبة زواجها ولقضاء بعض الوقت مع أهلها، فتتيح لي هذه الزيارة أن أجلو حقيقة الموقف بنفسي من غير أن أثير شبهات الشاه وشكوكه. ولكن هل تظن أن الشاه سيسمح لفوزية بالسفر إلى مصر؟

فقلت: أرجح كثيرا أن يوافق على ذلك وخصوصا إذا قالت له إنها تود أن تشاهد شقيقتها بمناسبة زواجها، وإن هذه الرحلة ستساعدها على الاستجمام بعد مرضها الأخير.

فقال: سنرى.

وسكت لحظة كمن يراجع نفسه في أمر لم يفصح عنه بعد، ثم قال: فاتني أن أخبرك أن كاتب التقرير قال في تقريره الذي تسلمته اليوم أنه ينصح، في الظروف الحاضرة، بأن نبذل أقصى ما يمكننا بذله لإبعاد فوزية عن إيران وإحضارها إلى مصر. وبذلك تلاقت فكرتي واقتراحه عن غير قصد!

ولاشك عندي في أن السكوت الذي قابلت به هذه العبارة لم يخف عليه، فقد كان بعد عشرتنا الطويلة يدرك مغزى الصمت الذي التزمه في بعض المناسبات وإن تظاهر بأنه لا يلاحظه!

وقبل انصرافي من القصر اتصلت بالأستاذ أحمد يوسف «بك» السكرتير الخاص للملك واتفقت معه على موعد نجتمع فيه .

فقد كان أحمد يوسف أستاذ فاروق وشقيقاته في اللغة العربية ، وكنت أقدر علمه وفضله تقديري لسماحته ورزانته .

ولما اجتمعت به طلبت منه أن يحدثني عن أخلاق فوزية وطبائعها كما عرفها منذ حداثتها . فقال إنها كانت دائما فتاة «عاقلة» و «جد» وقليلة الكلام «جدا» وإنها كانت أكثر شقيقاتها رصانة وهدوءا وأقلهن حركة و«مرحا» حتى أن من يعرفها كان يظن أنها تشكو بعض «الكآبة» ولم يكن أحب إليها من أن تجلس في مكان هادئ منعزل وتمضي وقتها في المطالعة!

وأيدت لي مدام «تابوريه» المربية الفرنسية في حديثها عن فوزية ما ذكره لي عنها أحمد يوسف بالحرف الواحد تقريبا!

وسألت أحمد يوسف ومدام «تابوريه» هل يعتقدان ـ وقد عرفا فوزية معرفة جيدة وخبرا أخلاقها وطبائعها ـ أنها المرأة التي تقدم على مغامرة غرامية محفوفة بالخطر والفضيحة ، فاتفق رأيهما على أنها ليست المرأة التي تخطو خطوة واحدة في هذا السبيل بحال ما!

وكأنما أرادت مدام «تابوريه» أن تؤكد لي رأيها فعادت وقالت بالفرنسية : فوزية . محال . محال . ألف مرة محال!

وكان غرضي من هذا الحديث مع الأستاذ أحمد يوسف ومدام تابوريه أن «أقابل» بين فوزية كما وصفها لي شخصان «محايدان» عرفاها قبل زواجها . وبين فوزية كما سأراها عند قدومها إلى مصر . إذ قدرت أن هذه المقابلة «لن تخلو من فائدة» . . . وقد أثبتت لي الأيام فيما بعد أنها كانت ذات فائدة عظيمة على نحو ما سيرى القارئ .

الفصل الثاني

الاستعداد لزيارة الإمبراطورة

ماكاد الشاه يكاشف بفكرة سفر الإمبراطورة إلى مصر لزيارة أهلها ومشاهدة شقيقتها بمناسبة زواجها حتى رحب بالفكرة ووافق عليها!

ورأيت في هذه الموافقة دليلا على أن لا خلاف بين الشاه وزوجته ولا شقاق!

بل رأيت فيها دليلا على أن العلاقات بينهما عادية وطبيعية. . . وإلاّ ما سمح الشاه لزوجته بالسفر إلى مصر في تلك الظروف!

أو على الأقل لما سمح لها بالسفر «بهذه السرعة». . . وقد كان فاروق نفسه أول من دهش لها كما اعترف لي بذلك!

ورأيت فيها أبلغ دليل على كذب أسطورة غرام الإمبراطورة بالمعلم!

ومع أن فاروق لم يكن في حاجة إلى من يبرز له معنى هذه الدلائل ومغزاها وجدت لذة خاصة في التنوية بهما أمامه غير مرة.

ولم يمض يومان على وصول نبأ موافقة الشاه على الزيارة حتى انضمت إلى الدلائل المتقدمة دلائل شتى أخرى، وفي مقدمتها ما أبدى البلاط الإمبراطوري الإيراني من اهتمام فائق ببحث تفاصيل استقبال الإمبراطورة في مصر مع البلاط الملكي المصري عن طريق السفارة الإيرانية بالقاهرة.

فمع اتفاق الجانبين على أن الزيارة ليست رسمية، ومع استيثاق الشاه من أن فاروق سيكرم وفادة شقيقته، أفهم الجانب الإيراني الجانب المصري أنه يحرص أشد الحرص على أن تقابل الإمبراطورة بأعظم مجال الإجلال والاحترام حتى ولو كانت الزيارة غير رسمية كما تقدم. . . وكانت السفارة الإيرانية تبرق إلى طهران بتفاصيل

برنامج الاستقبال والإقامة تباعا، ولا تقرها نهائيا إلاّ بعدما تتلقى تعليمات صريحة بشأنها من البلاط الشاهاني!

ومع ذلك أبى فاروق أن يرى في ذلك دليلا ساطعا آخر على حقيقة العلاقات بين الشاه والإمبراطورة وعلى حقيقة ما يكنه الزوج لزوجته!

وكان من نتيجة الاتصالات والمباحثات التي جرت بين الجانبين أن تقرر أن يكون فاروق في طليعة مستقبلي الإمبراطورة عند هبوط الطائرة التي تقلها من طهران في مطار «النزهة» بالإسكندرية، وأن يؤدي قرة قول شرف من الجيش المصري التحية العسكرية لجلالتها عند نزولها من الطائرة، وأن تعزف موسيقاه السلام الإمبراطوري الإيراني، وأن يصطف جنود من الجيش المصري على طول الطريق من المطار إلى قصر الضيافة (قصر أنطونيادس) لتحيتها التحية اللائقة بها، حتى إذا بلغت قصر الضيافة حياها قرة قول شرف آخر، وعزفت موسيقاه السلام الإمبراطوري الإيراني، فالسلام الملكي المصري.

وخطر لفاروق في بادئ الأمر أن تحل الإمبراطورة ضيفة عليه في قصر «المنتزه» فهمس الجانب الإيراني في آذان المتصلين به من رجال البلاط المصري بأنه من الأوفق أن يعد لإقامة الإمبراطورة قصر خاص فتنزله محاطة بالحاشية التي ستصحبها من طهران.

ولما أخبر فاروق برأي الجانب الإيراني قال «مادامت هذه رغبتهم فلنعمل بما يرضيهم» فقد أراد أن يتجنب كل ما من شأنه أن يؤخر الزيارة أو يلغيها، ولذلك كانت جميع أوامره إلى رجاله تذكرهم دائما بوجوب بذل أقصى ما يستطاع بذله لإرضاء السفير الإيراني وتحقيق رغباته، وللحال شرعت الجهات المختصة في استيفاء إعداد قصر «أنطونيادس» ليكون تحت تصرف الإمبراطورة وحاشيتها طول مدة إقامتها في الإسكندرية، وهو القصر الذي استضاف الملوك والملكات الذين زاروا مصر رسميا في عهد الملك فؤاد ثم استضاف الملك فكتور عمانوئيل الثالث وزوجته الملكة هيلانه والملك ابن السعود والملك عبد الله في عهد فاروق.

وزار فاروق قصر أنطونيادس بنفسه ليتحقق من أن جميع أسباب الراحة

والرفاهية ستتوافر فيه للإمبراطورة وحاشيتها، ولاحظ عند طوافه ببعض الصالونات أن حرير الستائر والمقاعد قد فقد بهجته، إما لقدم عهده أو لقلة العناية به، فأمر بتغييره، وقال: إنها فرصة حسنة لتجديد رونق أثاث القصر ورياشه.

وقبل أن تصل الإمبراطورة إلى الإسكندرية بأيام اتصل بي «الشمشرجي النوبتجي» بالتليفون من قصر «المنتزه» وأبلغني أن الملك يريد أن أذهب إليه فورا، فسألته عن «الأحوال عندهم» فقال: «كان مزاجه رايق ثم اتلخبط فجأة بعد اطلاعه على تقرير ما اعرفش مصدره...».

وكانت تعليماته هذه المرة أن أدخل عليه «بمجرد حضوري»... فلقيته متمددا على سريره وهو يسلخ «الجلد» المحيط بإبهام إحدى يديه حتى بدا منه الدم... وكنا نعرف فيه هذه الخصلة عندما يكون في حالة عصبية شديدة ولا يجد ما يلهيه فيعمد إلى تشويه بعض أصابعه بهذه الكيفية، وكانت «المانوكرست» التي تسوي له أظافره كل أسبوع تشكو هذه الخصلة ولكن بدون جدوى.

ودعاني إلى الجلوس على كرسي صغير قريب من سريره، وقال: أمامنا مصيبة جديدة!

فقلت: ألم ننته من المصائب بعد؟... بلاش يا أفندم كلمة «مصيبة» دي!

فقال: إذا كان هناك خبر يستحق أن يقال في وصفه أنه «مصيبة» فهو الخبر الذي ستسمعه الآن... إنه حقيقة مصيبة!

فقلت: وهل هو بشأن الإمبراطورة أيضًا؟

فقال: وهل عندنا في هذه الأيام موضوع غير موضوعها... إن فوزية مصابة باضطراب عصبي شديد!

فقلت: اضطراب عصبي؟!

فقال: قيل لي إنه اضطراب عصبي، ولكني أظن أن حالتها أسوأ من ذلك وأن اصطلاح «اضطراب عصبي» استعمل لتلطيف الخبر وتخفيف وقعه في نفسي.

فقلت: وهل وصل هذا الخبر إلى جلالتك من المصدر نفسه؟

فقال: نعم، فقد تلقيت منه اليوم تقريرا جديدا لم يتضمن سوى هذا الخبر المشئوم!

فقلت : من الغريب أنه لم يخبر به جلالتك في التقريرين السابقين!

فقال : ربما لم يظهر عليها هذا العارض إلاّ أخيرا . . . أو ربما لم يشأ أن يفاجئني به وفضلّ أن يعد ذهني لسماعه بما ذكره عنها في التقريرين السابقين . . . أو ربما لما علم أنها ستحضر إلى مصر لم ير مفرا من مصارحتي بالحقيقة وخصوصا أنه أراد بهذه المناسبة أن ينصحنا نصيحة يشكر عليها فعلا وهي أن نبعدها عن الناس في بادئ الأمر بقدر الإمكان وأن نكون متيقظين لجميع حركاتها خوفا من حدوث أي حادث مكدر!

فقلت : معنى هذا بصراحة أنها مصابة بأكثر من اضطراب عصبي!

فقال : إذن أنت ترى مثلما أرى . . . أي أنه لابد أن تكون مصابة بأكثر من اضطراب عصبي، وإنما أُريدَ تهوين الخبر عليّ.

فقلت : لاشك أن هذا هو ما يفهم من مدلول كلام المصدر الذي تعتمد عليه جلالتك.

أما رأيي الشخصي فهو أن الإمبراطورة تتمتع بجميع قواها العقلية ولاتشكو من اضطراب ما . . . لا عصبيا ولا عقليا . . . فلتطمئن جلالتك من هذه الناحية!

فقال : وعلام تبنى هذا الرأي؟

فقلت : على مدلول الحوادث ومنطقها . . . فهل تعتقد جلالتك أن الشاه كان يقبل أن تزور الإمبراطورة مصر في هذه الأيام لو كانت مصابة بأي اضطراب من هذا القبيل؟! هل كانوا يطلبون أن يعد لها كل هذا الاستقبال وأن تقابل في المطار بجميع هذه المراسم لو كانوا يعلمون أنها مريضة وأنها بحركة صغيرة قد تخلق لهم فضيحة عالمية؟! إن هذا وحده لأعظم دليل على أن الإمبراطورة سليمة من كل مكروه!

فقال : وكيف تفسر إذن ما أنبأني به التقرير الذي وصل اليوم؟

فقلت : أعترف لجلالتك بأنني عاجز عن تفسيره عجزي عن تفسير ما جاء في التقريرين السابقين . . . وكل ما يمكنني قوله هو أنه يبدو لي أن في الأمر سرا . . . وسوف تكشفه لنا الأحداث يوما ما!

فقال: ليس أحب إليّ من أن تكون الحقيقة مطابقة لاستنتاجك وأن تكون حالة فوزية كما ذكرت، ولكن لا أظن أنك تلومني إذا قلت لك إنني عندما أواجه «استنتاجا» من جانبك و«أخباراً» من جانب آخر أرى أنه يجب عليّ أن أحسب حسابا لما تشير إليه الأخبار، حتى إذا اتضح لي أنها صحيحة كنت محتاطا للأمر، وإذا اتضح لي أنها غير صحيحة لا أكون قد خسرت شيئا بالاحتياط.

فقلت: وما الاحتياط الذي تود اتخاذه؟

فقال: لم يهدني تفكيري إلى شيء معين بعد... وعلى كل حال لايزال أمامنا متسع من الوقت... ولا أرى لماذا لا تساعدني أنت في التفكير في هذا الأمر أيضا...

فقلت: لي رجاء حار عند جلالتك...

فقال: من العبث أن تطلب مني ألا أفكر في هذا الموضوع...

فقلت: كل ما أرجوه من جلالتك ألا تفضي إلى أحد بالمخاوف التي تساورك.

فقال: طبعا، طبعا... فهل تظن أنه يفرحني أن يتناقل الناس أن شقيقتي مريضة في أعصابها!

غير أنه لم ينقض على حديثنا أربع وعشرون ساعة حتى ترامى إليّ أنه أسر إلى غير واحد من المحيطين به أن شقيقته فوزية «تعبانة في عقلها!».

وفي اليوم السابق ليوم وصول الإمبراطورة إلى الإسكندرية جلس فاروق على شرفة الجناح الخاص به في قصرة «المنتزه» يتساءل: ترى كيف ستكون فوزية؟ كيف سيكون منظرها؟... هل سيظهر عليها أنها مريضة؟... هل ستكون حركاتها وتصرفاتها طبيعية؟... ترى ماذا سيكون شعورها عندما سيتقدم سفير إيران للسلام عليها؟... وكيف ستعامله؟!

وكان يتساءل هذه الأسئلة قلقا، وفي ذهنه مائة احتمال لما قد يحدث في المطار في اليوم التالي، ثم قال لي: كن دائما قريبا مني في المطار غدا... لا تتقيد بالبروتوكول، فإن عملك يسمح لك بالوقوف بالقرب مني بحجة أنك تريد أن تسمع ما سيدور بيني وبين الإمبراطورة... ولكنك ستكون هناك في الحقيقة

لتراقب حركاتها كما سأراقبها أنا. فإذا «لمحنا شيئا» اختصرنا «التحيات والسلامات» واتجهنا بها إلى السيارة فورا، أنا من ناحية وأنت من ناحية أخرى لنحجبها عن الأنظار بحجة أنها متعبة من سفرها الطويل بالطائرة... هل فهمتني؟ إني أطلب منك أن «تفتح عينيك» وأن تكون منتبها لكل حركة، فلن يكون في المطار من يعرف السر غيرك؛ ولذلك سأعتمد على نفسي وعليك... مفهوم؟

فقلت باسما: مفهوم يا أفندم، ولكن سترى إن شاء الله أن الأمر لن يحتاج إلى شيء من هذا كله!

فقال: إن شاء الله... ولكن لا ضرر من الاحتياط... إنكم تعرفون أن فوزية هادئة جدا وتظنون أنه لكونها هادئة جدا لا يمكن أن تتأثر بثورات نفسية قوية، وهنا تخطئون التقدير، فإن الأشخاص الذين لهم طبيعة فوزية يستهدفون لتأثير الانفعالات النفسية وأخطارها أكثر من غيرهم!

فقلت: الحمد لله على أن جلالتك لم تعرف بالهدوء!

فقهقه ضاحكا، وصفق مناديا «الشمشرجي النوبتجي» وأمره بأن يسأل «جارو» هل انتهى من تنظيف النقود القديمة التي وصلت من أمريكا؟

وكان المسيو «جارو» الرجل المسئول عن حفظ مجموعة النقود القديمة وتنسيقها وتنظيفها.

وحسبت أن سؤاله عن «جارو» سيكون إيذانا بانتهاء مقابلتي، ولكن ما كاد «الشمشرجي النوبتجي» يغادر الشرفة حتى التفت إليّ وقال: قل لي يا كريم... ألا ترى في بعض تصرفاتي شيئا من الشذوذ أحيانا؟!

سألني هذا السؤال بلهجة طبيعية وعادية كأنه يسألني هل أحب نوع السيجار الذي قدمه لي!

فضحكت وقلت: ما هذا السؤال العجيب يا أفندم؟

فضحك بدوره وقال: تكلم بصراحة ولا تتردد... وخصوصا لا تحاول أن تكذب... إني أريد ردك الحقيقي على ما سألتك عنه.

فقلت ـ مراوغا ـ: هذا أغرب سؤال يمكنك يا أفندم أن توجهه إليّ!

فقال: ألا تعلم أن أسرتي عرفت بغرابة الأطوار؟! إني أنتظر ردك وثق أنني مفسح لك مجال الكلام.

فحيرني حديثه وأحرجني، ولم أدر كيف أخرج من مأزقي وأتملص من الرد على سؤاله... ولما رآني لا أتكلم، قال: لا تظن أن ترددك ينقذك... فالسكوت له معناه!

فقلت: الحقيقة أن بعض تصرفات مولانا تحيرّني أحيانا وتحيّر غيري...

فقال: كويسة «تحيرني» دى!

وضحك، فضحكت، فقال: وما رأيك في فلان وفلان وفلان وفلان وفلان؟

وكان جميع الذين ذكرهم من أمراء الأسرة العلوية ونبلائها.

وقال: سأسهل عليك الرد على سؤالي... هل تعتقد أن في أسرتنا أميرا يصلح لأن يكون ملكا أكثر مني؟

فقلت: لا يا أفندم!

فقال: وأنا أعتقد ذلك أيضا... وأؤكد لك أنني لو كنت أرى أن في عائلتي من يصلح للعرش أكثر مني لنزلت له عنه اليوم قبل غد... ولكني لا أرى أحدا!

فقلت: وما الداعي يا أفندم للكلام في هذا الموضوع وما مناسبته؟

فقال: كثيرا ما تبعثني حالتي النفسية على التفكير في ذلك... ولكن لنعد إلى موضوعنا الأصلي... كنت أفكر اليوم في «الملحوسين» والمصابين بالشذوذ العقلي في عائلتي فهالني كثرة عددهم، ولا ريب أنه كان للوراثة تأثيرها الكبير في ذلك جيلا بعد آخر منذ محمد علي مؤسس العائلة إلى أيامنا هذه... وأنا شديد الإيمان بالوراثة وتأثيرها فهل أنت من الذين يؤمنون بها كذلك؟

وارتحت إلى هذا التحول في الحديث وانتقاله من موضوع الجنون والمجانين إلى موضوع الوراثة وتأثيرها، فقلت على الفور: إيمانا تاما يا أفندم.

ولئلا يعود إلى الموضوع الأول، ويكرر أسئلته المحرجة، رأيت أن أشغله بحديث عن الوراثة يسترعي انتباهه ويسليه، ريثما ينقذني المسيو «جارو» من ورطتي فقلت: وبهذه المناسبة سأروي لجلالتك حكاية اكتشفتها بنفسي، ولعلها أعجب ما عرفت عن غرائب الوراثة وهي عن المرحوم.

وكان ذكر كلمة «المرحوم» في حديثنا غير مشفوعة باسم معين يعني دائما الملك فؤاد.

وكنت أعرف شغفه بكل حديث يمت إلى والده بصلة، وخصوصا إذا دار على ذكرياته التي لم يسمعها من قبل، فما كدت أذكر له أن الحكاية التي سأرويها عن غرائب الوراثة تتصل «بالمرحوم» حتى اتجه إليّ بملء سمعه، فقلت:

لايخفى على جلالتك أنه كان للملك فؤاد كحة من نوع معين. . . وكنت أعتقد ما يعتقده الناس جميعا وهو أن هذه الكحة ولدتها رصاصة أطلقها عليه الأمير سيف الدين في شبابه؛ وظل هذا اعتقادي حتى رافقت المرحوم في زياراته الرسمية لألمانيا وتشكوسلوفاكيا وسويسرا في سنة ١٩٢٩ فأتيح لي أن أكتشف سرا مهما. . . فقد تقرر أن ينزل في جنيف في فندق يقوم على ربوة مكان المعهد الذي دخله جلالته وهو في العاشرة من عمره، وكان يدعى معهد توديكوم نسبة إلى البروفيسور توديكوم منشئه. . . ولما وصلت إلى جنيف سألت بعض رجالها الرسميين هل يعرفون بين سكانها المتقدمين في السن من عاصر الملك فؤاد تلميذا في معهد توديكوم فيحدثني عن ذكرياته عن جلالته في حداثته؟ فقالوا لي إن نجل منشئ المعهد القديم لا يزال على قيد الحياة، وإنه كان تلميذا في معهد والده لما دخله الملك فؤاد وإنه لا يبارح بيته لمرض أقعده في المدة الأخيرة؛ وزرت المسيو توديكوم الابن، وصارحته بغرضي من زيارته، فحدثني عن المرحوم حديثا طويلا نشرت يومئذ الجزء الأكبر منه، واحتفظت لنفسي بالجزء الذي لم أنشره.

وهنا قاطعني فاروق قائلا: وماذا كان موضوع الجزء الذي لم تنشره؟ لابد أنه كان عن معاكسة المرحوم للبنات!

فقلت: إن الملك فؤاد كان يومئذ في العاشرة من عمره. . .

فقال: وماذا يهم ذلك. . . أنا بدأت أعاكس خادمة كانت في القصر قبل أن أبلغ العاشرة!

فقلت: على كل حال إن الجزء الذي لم أنشره لم يكن عن معاكسة البنات.

فضحك وقال: عما كان إذن؟

فقلت: عن الحكاية التي قلت لجلالتك إنني سأرويها لك وقد وصلت إليها. . . فقد حدث أنه بينما كان المسيو توديكوم يحدثني عن المرحوم توقف عن الكلام فجأة

وسألني قائلا : هل استمر جلالته «يكح» تلك «الكحة» العصبية بعدما أصبح رجلا ، فإني لم أره منذ حداثتنا . . .

فأذهلني سؤاله . . . وقلت له : أية «كحة» تعني يا سيدي؟!

فقال : لما دخل جلالته معهدنا لاحظنا أنه «يكح» بين آونة وأخرى في أثناء كلامه فظننا في بادئ الأمر أنه سعال ناشئ عن برد يشكو منه . . . غير أنه تبيَّن لنا بعد أيام أنها «كحة» عصبية . . . وكان أحيانا يضع يده على فمه ليداريها وليظهرها بمظهر السعال العادي . . . وطالما سألت نفسي فيما بعد هل تحرر من هذه الحركة العصبية؟ . . . ولذلك سمحت لنفسي بأن أسألك عنها!

فقلت له : لقد لازمته حتى الآن .

فقال : من الغريب كيف أن بعض الحركات العصبية لازمت الإنسان طوال حياته؟ . . وقد استغربنا يومئذ وجود هذه الحركة في جلالته استغرابا شديدا بدليل أن ذكراها لم يبرح مخيلتي . . . وكنت أرجو أن يكون قد استراح منها على مر الأيام ولكن يظهر أنها كانت طبيعة فيه!

وهنا قلت لفاروق : هذا هو الجزء الذي لم أنشره من حديث المسيو توديكوم .

فقال : ولماذا لم تنشره؟

فقلت : لأن الكتابة في موضوع تلك «الكحة» لم تكن متيسرة في عهد المرحوم .

فقال بالفرنسية : هذه أول مرة أسمع فيها هذا الحديث وهو حقيقة مثير للاهتمام . . . ولكني لا أرى علاقته بموضوع الوراثة .

فقلت : نخرج إذن من حديث المسيو توديكوم أن الكحة العصبية التي كان المرحوم يشكو منها لم تنتج عن حادثة إطلاق الرصاص عليه ، بل كانت حركة طبيعية لازمته منذ نشأته ، وقد كنت أطالع أخيرا كتابا قديما ألفه أمير ألماني زار مصر في عهد محمد علي وعرفه شخصيا ، فاستوقف نظري فيما كتبه عنه قوله إنه كان يكح كحة عصبية ، وإن هذه الكحة كانت تتكرر باستمرار في أثناء حديثه ، فتذكرت عندئذ كحة المرحوم ، وقول المسيو توديكوم أنه كان يكح منذ حداثته واستنتاجه أنها كانت كحة طبيعية ، وربطت بينها وبين كحة محمد علي وقلت لابد أنها قد آلت إليه عن جده الأكبر بطريق الوراثة ، وقد رأينا في غرائب الوراثة

حالات كثيرة تعدت جيلا وجيلين ثم استقرت في الجيل الثالث فلا يستبعد أن تكون حالة الملك فؤاد منها.

ومما ذكره ذلك الأمير الألماني في كتابه أنه علم من بعض المحيطين بمحمد علي أن كحته العصبية زادت واشتدت «على أثر الهياج العصبي الشديد الذي استولى عليه في أثناء إطلاق الرصاص على زعماء المماليك لما حاصرهم في قلعة القاهرة وأمر بإبادتهم».

ويلوح لي أن الظاهرة نفسها تكررت في حالة الملك فؤاد فتفاقمت كحته بعد حادث إطلاق الرصاص عليه على منوال زادها استرعاء للانتباه، ومن هنا نشأت الرواية القائلة إن رصاصة مست إحدى رئتيه هي التي سببت له هذه الكحة الدائمة!

وبينما كنت أتوقع أن يبدي فاروق دهشته لما قصصته عليه وأن يسألني عن اسم الكتاب الذي قرأت فيه تلك الفذلكة عن كحة محمد علي... إذا هو يقول لي: إذا كانت كحة عصبية قد قفزت من محمد علي إلى المرحوم فمن الأسهل جدا أن ينتقل الجنون من جيل إلى أجيال تالية، وإذا ذكرنا أن كثيرين من أولاد محمد علي وأحفاده قد ماتوا مجانين أو شبه مجانين فلا يدهشنا أن نرى تأثير ذلك في ذريتهم عن طريق الوراثة!

فضحكت، فقال: أتحسبني مازحا؟ فقلت: ليس ذلك ما يضحكني يا أفندم وإنما أضحكني أنك لم تترك مزيدا لكاتب شيوعي يريد أن يهاجم أسرتك.

فقال: إن أعضاء أسرتي قسمان، قسم لا يحبني، وقسم يكرهني. وهم جميعا لا يعلمون أنه في اليوم الذي أرحل فيه عن مصر لن تقوم لهم قائمة فيها... وأؤكد لك أنني أتمنى أحيانا أن يحدث ذلك ليروا ماذا سيحل بهم!

وجاءه «الشمشرجي» يبلغه أن المسيو «جارو» انتهى من تنظيف رسالة النقود القديمة التي وصلت من أمريكا، فقال لي: سأستأنف الكلام معك في هذا الموضوع في فرصة أخرى، فإني مشغول الآن مع «جارو»... وسأراك غدا في المطار إن شاءالله... فكن متنبها ولا تتغافل عما أوصيتك به... وربنا يستر!

الفصل الثالث

الملك يسرق شقيقته الإمبراطورة

لما ذهبت في اليوم التالي إلى المطار تعمدت أن أطيل الوقوف مع سفير إيران وأنا أتفرس في ملامح وجهه فاستوقفت من انشراحه، وقلت في نفسي إن الأخبار المفزعة التي تلقاها فاروق عن الإمبراطورة لا تستقيم مع هذا الانشراح غير المصطنع، فازددت تفاؤلا واغتباطا.

ووصل فاروق فحيا سفير إيران وسائر كبار المستقبلين الرسميين تحية سريعة تنم عن قلقه، ثم استدعى كبير الياوران وأسر إليه أمرا، فاتجه الفريق عمر فتحي (باشا) إلى حيث كان مدير إدارة السيارات الملكية واقفا وأبلغه فحوى الأمر، فأسرع إلى سائق السيارة الملكية وهمس في أذنه كلمات، فأدار محرك السيارة وتقدم بها بضعة أمتار ثم استقرت خلف كبار المستقبلين مباشرة، فأدركت غرض فاروق من هذه المناورة وهو أن تكون السيارة في أقرب مكان إلى الطائرة احتياطا «للطارئ» الذي كان لايزال يحسب حسابه!

وسمعنا أزيز الطائرة في الموعد المحدد لوصولها، وما كادت تهبط وتفتح أبوابها حتى بدت الإمبراطورة على سلمها، ولما شرعت الموسيقى في عزف السلام الإمبراطوري الإيراني وقفت أمام السلم وقفة وقار وجلال، ثم تقدم فاروق للسلام عليها فتبادلا القبلات، وتقدمت مندوبة «جلالة الملكة» (فريدة) وقدمت لها طاقة من الورد فتقبلتها وشكرتها، ثم صافحت سفير إيران ومن معه من رجال السفارة الإيرانية فكبار المستقبلين من المصريين، ولما انتهت مراسم الاستقبال طبقا للبرنامج المقرر لها دعاها فاروق إلى سيارته وأجلسها إلى يمينه فانطلقت بهما إلى قصر «أنطونيادس» بين تحية الجند وقصف المدافع.

ولم يستوقف نظري في الإمبراطورة عند نزولها من الطائرة سوى ضآلة

جسمها، وكنت أعرف مما سمعته عنها أن «حبتها صغيرة» منذ نشأتها، وكنت من جهة أخرى أعلم أن مرضها الأخير أفقدها بعض وزنها؛ فلم أعر ضعفها اهتماما كبيرا، وكذلك لم أهتم بما كان يبدو على وجهها من علامات التعب، فقد أدخلت في تقديري أن الرحلة بطريق الجو من طهران إلى القاهرة ترهق من لم يألف الطيران، وأن الإمبراطورة قضت ليلتها في التأهب للسفر، وأنها غادرت طهران مع الفجر.

أما ما كان فاروق يتوجس منه خيفة، لم أكتشف له أثرا. . . لا في طلعتها، ولا في مشيتها، ولا في حركاتها، ولا في صورتها!

ولا ريب أنه لولا المعلومات التي استخرجتها من حديث الأستاذ أحمد يوسف ومدام «تابوريه» لرأيت مظهرها أنها امرأة غير سعيدة، ولفسرت عدم ابتسامتها بأنها امرأة حزينة، ولعللت انحباس الكلام في فمها بأنها امرأة فقدت نضارة الحياة حتى أضحت مخارج الألفاظ لا تجد القوة التي تحركها بين شفتيها، ولكن الصورة التي زودني بها الأستاذ أحمد يوسف ومدام تابوريه كانت ماثلة في ذهني. فلما طلع عليّ «الأصل» لم يذهلني بنظره!

ومع ذلك فلا الضعف قلل من جمالها، ولا التعب حجب شيئا من دقة ملامحها، فاتفقت آراء الذين كانوا في المطار على أنها «حقيقة جميلة» . . . ومع ذلك لم يتجل لي جمالها وحسنها على حقيقتهما إلاّ بعدما استراحت من عناء السفر ووعثائه.

ولما بلغت قصر أنطونيادس كان فاروق والإمبراطورة قد نزلا من السيارة ووقفا أمام باب القصر بينما كانت الموسيقى تعزف السلام الإمبراطوري الإيراني، وما انتهت الموسيقى من عزفه حتى كان التعب المستولي على الإمبراطورة قد أنهك قواها فكادت تتعثر وهي ترقى آخر درجة من درجات السلم الصغير المؤدي إلى داخل القصر، وكانت شقيقتها فائزة في انتظارها عند الباب فخفت إليها وطوقتها بذراعيها وانهالت عليها بقبلاتها، ثم رافقتها إلى الجناح الخاص بها، وأشرفت على إراحتها من قبعتها، وقدمت لها الشاي بيدها، وهي تكرر تقبيلها بين لحظة وأخرى في لهفة وحماسة أبرزتا حالا ما بين الشقيقتين من فارق كبير في الأخلاق والطبائع!

وبعد ما استراحت فوزية قليلا، فتحت حقيبة صغيرة حملتها إليها خادمتها المصرية القادمة من طهران، وأخرجت منها صورتين فوتوغرافيتين إحداهما للشاه والأخرى لكريمتهما ووضعتهما على منضدة في حجرة جلوسها، فبهت الحاضرون ونظر بعضهم إلى بعض في صمت خيل إليّ في تلك اللحظة أنه أبلغ من كل كلام، فقد كانوا بعد الذي سمعوه من فاروق عن تعاسة فوزية وشقائها يتوقعون أن تفاجئهم فوزية بكل شيء إلاّ بأن تزين حجرة جلوسها بصورة زوجها!

وقالت لها فائزة بالفرنسية وهي لا تفكر فيما تقول: «إنها صورة لطيفة. . .» فأجابتها بقولها: «إنه أحسن جدا من صوره!».

ونظرت في تلك الدقيقة إلى فاروق مستطلعا وقع هذه الكلمات في نفسه فإذا هو ينهض ويقول: لينصرف الرجال الآن ولنترك فوزية في عناية السيدات.

ثم التفت إلى فوزية وقال لها بالفرنسية: سأتركك الآن يا حبيبتي لعمل ينتظرني. ثم إنك في حاجة إلى تنظيم أمورك وستجدينهن جميعا في خدمتك فلا تجهدي أنت نفسك. . . وسأعود إليك بعد قليل. . ثم اقترب منها وقبلها، وقال لفائزة بالفرنسية أيضا: اهتمي بها واسهري على أن تتهيأ لها جميع أسباب الراحة، وإذا رأيت نقصا في الجناح الخاص بها فأخبريني به فورا، فأنا أريد أن تكون إقامتها بيننا مريحة وسعيدة من جميع الوجوه!

فقالت الإمبراطورة في هدوء وحياء كأنها فتاة في العاشرة من عمرها: «مرسي شيري»، وانتقل فاروق إلى الجناح الذي أفرد للحاشية الإيرانية التي قدمت من طهران بمعية الإمبراطورة وطاف بالحجر التي أعدت لرجالها متفقدا ترتيبها ونظامها، فأكبروا عنايته، وناب عنهم كبيرهم في شكره على عطفه ورعايته؛ فقال له فاروق إنه يرجو أن تكون جميع أسباب الراحة قد وفِّرت لهم، فانحنوا جميعا شكرا وإجلالا، فحياهم برفع يده إلى رأسه، ومضى في سبيله إلى الحديقة كمن يروم أن يلقي نظرة عليها استكمالا لجولته.

وصحبناه إلى الحديقة تاركين بينه وبيننا مسافة غير قصيرة، فقد كان يحب أن يبالغ رجاله في مظاهر الاحترام والتعظيم، ولاسيما أمام الغرباء، وقد أدخلنا في تقديرنا أن الضيوف الإيرانيين يرصدوننا من خلال النوافذ.

وسار في الحديقة قليلا ثم ناداني وقال لي: تظاهر وأنا أكلمك بأنك تتلقى توجيهات مني فإن أكثر من عين واحدة تتجه إلينا!

فسرت إلى جانبه متأخرا عنه نصف خطوة، وقد أطبقت يدا على أخرى كما كان رجال القصر يقفون في حضرته أو يسيرون بمعيته، ثم قال: ما رأيك؟

فقلت: أظن يا أفندم أن كل شيء قد سار على ما يرام!

فقال: أنا أسألك عن فوزية، إن أمرها محيّر!

فقلت: هل تعني جلالتك حكاية الصورة الفوتوغرافية؟

فقال: ليست الصورة فقط. فقد سألتها ونحن في السيارة عن أحوالها؛ فأجابتني بأنها «مبسوطة!» فسألتها عن علاقاتها بزوجها؛ فقالت إنها «كويسة» وإنه «ظريف جدا معها!».

فقلت: الحمد لله على ذلك.

فقال: ولكن أنا مرتاب في هذا الكلام.

فقلت: لماذا يا أفندم؟

فقال: لأنه يخالف كل ما جاء في التقارير التي تلقيتها!

فقلت: ولماذا نصدق التقارير ولا نصدق الإمبراطورة نفسها؟

فقال: ولذلك تراني محتارا!

فقلت: ولماذا يحتار مولانا مادامت صاحبة الشأن تقول إنها «مبسوطة»؟!

فقال: ربما لم تشأ أن تواجهني بالحقيقة من أول دقيقة.

فقلت: على كل حال إن حركة الصورة كانت حركة طبيعية وذات مغزى!

فقال: وهذه الحركة زادتني حيرة، وأنا من جهتي أيضا أعتقد أنها كانت حركة طبيعية؛ فإن فوزية ليست المرأة التي تتقن التمثيل لهذه الدرجة!

وكأنما أراد استدراك ما اعترف به؛ فقال: ولكنها ضعيفة جدا ومتعبة جدا!

فقلت: إن شاء الله يساعدها جو البحر على الاستجمام وتعويض ما فقدته من

وزنها بسبب مرضها، أما كونها متعبة فأمر طبيعي بعد رحلتها الجوية الطويلة، ولكن الحمد لله على أننا لم نر للأنباء المزعجة أثرا!

وأدرك ما عنيت «بالأنباء المزعجة» فقال: هل تعتقد أن كلامها طبيعي؟

فقلت: مائة في المائة! . . . وليس في جميع حركاتها ما يشعر بشيء غير طبيعي!

فقال: إننا لم نجالسها وقتا طويلا بعد لنعرف هل هي دائما كذلك . . . وعلى كل حال ليس أحب إليّ من أن تكون سليمة!

فقلت: اطمئن جلالتك فإنها سليمة ولله الحمد.

فقال: عندما أتحقق من أنها غير تعيسة وغير «مهزوزة» سيستريح قلبي من كابوس فظيع، وسيكون ذلك اليوم من أسعد أيام حياتي!

فقلت: لا أدري لماذا تريد جلالتك أن تطيل قلقك بعدما استبانت لك الحقيقة اليوم؟

فقال: ولكن هل هي الحقيقة؟ والتقارير التي وصلت إليّ؟

فقلت: سوف نكتشف سر هذه التقارير يوما ما.

فقال: خطر لي احتمال قد يفسر بعض ما يحيرنا . . . لماذا لا نقول إنه لما علمت فوزية أنها ستجيء إلى مصر وأنها ستبتعد عن جو القصر في طهران أخذت تسترد حالتها الطبيعية شيئا فشيئا ولذلك رأيناها اليوم بالهدوء الذي عرفناها به؟!

فقلت: هذا على فرض أن أعصابها كانت ثائرة في الجو الذي كان يحيط بها في طهران.

فردّ على هذه «الغمزة» الجديدة في التقارير السرية التي ضللته بقوله: ثق أنه إذا ثبت لي أن كاتب التقارير لم يتوخ الحقيقة لعرفت كيف أحاسبه على تصرفه!

فقلت: المهم الآن أننا عرفنا الحقيقة!

فقال: لا يا سيدي . . . لا . . . أنت تعلم أنني إذا وثقت بإنسان انتظرت منه أن يحافظ على الأمانة والصدق اللذين أهّلاه لثقتي به، فإذا انحرف عنهما كرهته وغضبت عليه، وكان غضبي بنسبة الثقة التي كان يتمتع بها عندي!

وهنا أقبل إلينا أحد خدم القصر وقال لفاروق: إن فلانا يقول لمولانا إن كل شيء جاهز.

فقال له : قل له إنني سأحضر حالا.

وانطلق الرجل عائدا إلى القصر، فقال لي فاروق: عندي «مشغولية» ستشغلني نحو نصف الساعة فانتظرني في «الصالون» وحاول في تلك الأثناء أن تتكلم مع بعض رجال حاشية الإمبراطورة وأن تعرف رأيهم في الاستقبال وفي الترتيبات التي عملت لهم فإنه يهمني أن يكونوا مستريحين وراضين!

وعند وصولنا إلى القصر قال لي : ادخل أنت من الباب الذي خرجنا منه. أما أنا فسأدخل من باب للخدم لأني أريد أن أتجنب لقاء الضيوف منعا لتكرر «السلامات والتحيات».

وفي «الصالون» صادفت بعض رجال حاشية الإمبراطورة، فتصافحنا مرة أخرى وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان من الطبيعي أن يدور على الاستقبال الرائع الذي أعد لجلالة الإمبراطورة وعلى الرعاية والعطف العظيمين اللذين شملهم بهما جلالة الملك، فقلت لهم إنه أمرني بأن أسألهم مرة أخرى هل هم مرتاحون إلى «الترتيبات» التي عملت لهم؟ وأن أستطلعهم بصراحة هل هناك ما يرغبون في تعديله في النظام الذي وضع لخدمتهم؟ فأجابوا بأنهم عاجزون عن شكر جلالته على ما أحيطوا به من عناية وتكريم!

وسألتهم عن رحلتهم؛ فقالوا إن الأحوال الجوية كانت ملائمة فخففت عليهم الساعات الطويلة التي استغرقتها، وإن جلالة الإمبراطورة أبدت تجلدا جديرا بالإعجاب وإنها قضت معظم الوقت في القراءة بهدوئها المعتاد... ونوهوا في خلال حديثهم عنها بالمكانة الرفيعة التي عرفت جلالتها كيف تكتسبها في قلوب الشعب الإيراني كما اكتسبتها في قلوب أعضاء الأسرة الشاهانية، وأشاروا إلى حب الشاه لها وتعلقه بها بعبارات موفقة تؤدي المعنى المنشود مع عدم ظهور التحدث بمظهر من يتعمد الإشارة ويقحمها في الحديث تكلفا!

ولم يزل الحديث ينتقل من موضوع إلى آخر حتى دخل علينا أحد خدم القصر وقال لي: «عن إذن سعادتك لحظة»، فودعتهم آملا أن يتكرر لقاؤنا قريبا، ولما

خرجت من «الصالون» قال لي الخادم همسا إن الملك أمره بإبلاغي أنه عاد إلى قصر المنتزه وأنه سيتصل بي في الفندق فيما بعد!

وغادرت قصر أنطونيادس ومدخنة مطبخه الكبير توحي بأن الطاهي ومساعديه منهمكون في إعداد طعام العشاء لمائدة جلالة الإمبراطورة، ولمائدة الحاشية، وكان فاروق قد أمر بأن تكون المائدتان على الدوام في مستوى المأثور عن مصر من كرم الضيافة، وأن يختار لخدمة الإمبراطورة وحاشيتها لفيف من أكثر خدمه كفاءة ولباقة، ولم يكتف بذلك بل عهد أيضا إلى أحد رجاله بمراقبة الخدمة والإشراف عليها، وزوده بتعليمات مشددة وفي مقدمتها أن يستوثق في كل وقت من أن الضيوف الإيرانيين يتمتعون بأقصى ما يمكن توفيره لهم من ضيافة كريمة!

وعلى طريق «الكورنيش» شاهدت الكابينة، المستقلة الكبيرة التي أقامتها بلدية الإسكندرية في بقعة منعزلة على شاطئ البحر لتكون تحت تصرف الإمبراطورة، ولا أظن أنها جلست فيها أكثر من مرات معدودة فقد كانت تتردد على حمام قصر المنتزه كلما أرادت النزول إلى البحر أو الجلوس على شاطئه.

وبينما كان فاروق يجتاز طريق «الكورنيش» ذات ليلة مع بعض رجاله رغب في مشاهدة «كابينة» الإمبراطورة من الداخل، وكان «خفيرها» (حارسها) يتعشى في مكان بعيد منها مطمئنا إلى وجود مفتاح بابها في جيبه! . . . فأوعز فاروق إلى أحد الذين كانوا معه بتحطيم زجاج إحدى نوافذها بقبضته، فحطمه، وجرح يده، فطلب إليه عندئذ اقتحام «الكابينة» من خلال تلك النافذة ليفتح لهم الباب من الداخل، فرفعه اثنان من الحاضرين إلى مستوى النافذة وحشراه في «فتحتها» الصغيرة. . . وبعد عناء كثير تمكن من الهبوط في داخل الكابينة «وفتح الباب!» .

وأبدى صاحب الجلالة «ارتياحه السامي» إلى نظام «الكابينة» ونظافتها.

أما رأي الخفير في «الزيارة الملكية» فلم أعرفه!

ولما عدت إلى الفندق قيل لي إنهم سألوا عني بالتليفون من قصر المنتزه، فاتصلت «بالشمشرجي النوبتجي» وأعلمته بوجودي في الفندق، فكلمني فاروق بعد برهة وجيزة ليخبرني أن «المشغولية» التي شغلته في قصر أنطونيادس بعد افتراقنا

استغرقت من وقته أكثر مما كان مقدرا لها فاضطر بعد فراغه منها أن يعود إلى «المنتزه» مسرعا وبدون أن يراني لارتباطه بموعد مهم!

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ولعلهم لم يتوانوا في إبلاغك رسالتي إليك فلم يطل انتظارك بعد انصرافي!

وتناول حديثه بعد ذلك طائفة من الشئون لاعلاقة لها بموضوع الإمبراطورة، ثم تذكر فجأة أنه لم يسألني عن «الدردشة» التي دارت بيني وبين الضيوف الإيرانيين، فأوجزتها له، فلم يعقب عليها، واختتم المحادثة بقوله « إنه سيراني في الغد، فنتكلم في هذا كله».

ولم يكن من العسير عليه وقد خبرت أطواره وبلوتها في مختلف تقلباتها، أن ألاحظ أن لهجته في هذه المكالمة التليفونية كانت تنم عن ارتياح من المحقق أنه كان منتفيا في أثناء سيرنا في حديقة قصر أنطونيادس . . . فما الذي أنشأه بعد ذلك؟

إننا لما تقابلنا في حديقة أنطونيادس عقب وصول الإمبراطورة إليه كان فاروق قد سمع من شقيقته أنها «مبسوطة» وأن العلاقات بينها وبين الشاه حسنة و«أنه ظريف جدا معها»، وكان قد ظهر له أيضا أن شقيقته «طبيعية» في تصرفاتها وحركاتها وأقوالها، فكان كل شيء إذن يدعو إلى مقابلة هذه الدلالات السارة بارتياح، ومع ذلك لم يشأ أن يطرح التشاؤم جانبا، وأبى إلاّ أن يكون متحفظا.

وها هو الآن، ولم ينقض على لقائنا في حديقة قصر أنطونيادس سوى ساعتين، يكلمني تليفونيا في أمور ثانوية تحتمل كلها التأجيل يوما، بل أياما، وإذا لهجة كلامه تنم عن ارتياح حاولت منذ قليل أن أبثه فيه فلم أنجح.

فما الذي جدّ في خلال هاتين الساعتين؟

وما السر في هذا التحول الفجائي الذي طرأ على حالته النفسية وكيف أفسره؟

وكان من الطبيعي أن أسائل نفسي كذلك لماذا حرص على مغادرة قصر أنطونيادس من غير أن يراني مع أنه هو الذي طلب مني أن أنتظره في «صالون» القصر إلى أن ينتهي من «مشغوليته»؟

ولم أصدق أن سبب استعجاله هو تأخيره عن «موعد مهم» أوخوفه من أن يتأخر على «موعد مهم»! . . . فقد كنت أعلم أنه لا يبالي بالوصول إلى أي موعد متأخراً مهما كان الموعد مهما!

ثم هل كانت الدقائق التي سيستغرقها استدعائي من «الصالون» هي التي ستعوقه عن موعده، أو تزيده تأخيرا؟

إذن ماذا؟

ولم يتح لي أن أكتشف الحقيقة إلاّ بعد مدة غير قصيرة، فاتضح لي أن فاروق تعمد في ذلك اليوم أن يغادر قصر أنطونيادس بدون أن يراني لأنه لم يشأ أن يستصحبني معه في سيارته واتضح لي كذلك أن تذرعه «بالموعد المهم» لم يكن عذرا انتحله ليطيب به خاطري بل كان زعما زعمه ليتستر على عمل عمله وأراد أن يحول دون اطلاعي عليه !

ومن اللحظة التي اكتشفت فيها الحقيقة وضح لي اللغز الذي طالما حيرني، وأعني لغز تحول حالة فاروق النفسية في خلال ساعتين من تشاؤم إلى ارتياح، فقد كان هذا الارتياح وثيق الصلة بالسبب الذي من أجله انصرف من قصر أنطونيادس من غيري. . . بل كان نتيجة له!

فماذا كان السبب؟

أو بعبارة أخرى ماذا كانت النتيجة التي اكتشفتها؟

وهنا تبدأ قصة من أعجب قصص فاروق: فإنه على أثر وصوله إلى قصر أنطونيادس من المطار بصحبة الإمبراطورة استدعى كبير خدم القصور الملكية وقال له إنه يريد أن يلقي نظرة على حقائب الإمبراطورة عند وصولها إلى القصر من المطار قبل أن يراها أحد ولو كانت الإمبراطورة نفسها، وعين له الحجرة التي يروم أن «يحجزوها» فيها حتى يتسنى له مشاهدتها من غير أن يفطن أحد إلى ذلك، وأمره أن يخبروه بوصولها عندما ينتهون من «تستيفها» في تلك الحجرة!

وامتثل كبير الخدم لمشيئته طبعا، ولما أتم نقل الحقائب أنفذ إليه من أنبأه بذلك، وكان فاروق ساعتئذ يحادثني في حديقة القصر، وقد ذكرت في فقرة سابقة أن

أحد الخدم جاءه في أثناء وجودنا في الحديقة وأبلغه رسالة غامضة، وأنه على أثر ذلك رجعنا إلى داخل القصر وطلب مني أن أنتظره في «الصالون» ريثما ينتهي من «مشغوليته».

ودخل فاروق الحجرة التي صفت فيها الحقائب، وخلع سترته، وعكف على معالجة أقفالها بمجموعة من المفاتيح من مختلف الأحجام والأشكال أحضرها من قصر المنتزه خصيصا لهذا الغرض فأفلح في فتح بعضها وعجز عن فتح أغلبها، فلم ترضه هذه النتيجة وأمر بإحضار آلة حادة، ولم يزل يخلع الأقفال التي عاندته ويهشمها حتى استراح منها كلها!

أخذ فاروق بعد ذلك يتفقد محتويات الحقائب تباعا.

وكان يستخرج من كل حقيبة ما يستوقف نظره، ويحلو له الاحتفاظ به، ويضعه على حدة ثم يقفل الحقيبة وينتقل إلى غيرها.

ولم تمنعه حرارة الحجرة ورطوبتها من المضي في هذه العملية حتى أتى على الحقائب جميعا، فتركها غير حافل بحالة أقفالها ودلالتها، ولم يهتم إلاّ بما استولى عليه من محتوياتها فأمر بعض خدمه بنقله إلى سيارته في رفق وعناية، فأذعنوا وهم لا يصدقون ما تراه أعينهم!

ثم خفّ فاروق إلى سيارته، وانطلق بها إلى قصر «المنتزه» فرحا بما سلبه من الإمبراطورة شقيقته وضيفته!

ولما وقفت على تلك المعلومات، وحققتها، وتأكدت من صحتها، أدركت لماذا كتم عني فاروق في ذلك اليوم نوع «المشغولية» التي كان مشغولا بها!

وفهمت لماذا تعمد أن يبرح قصر أنطونيادس من غير أن يراني ومن غير أن يستصحبني معه... فقد ملأت «الأسلاب» سيارته، وكان يبغي أن يظل أمرها مكتوما عني، خافيا عليّ!

وفي الوقت نفسه أزاحت تلك المعلومات النقاب عن التحول الفجائي الذي تحولته حالته النفسية في ذلك اليوم، فاكتشفت سر الارتياح الذي تجلى في حديثه التليفوني معي ولم يمض على حديثنا في حديقة قصر أنطونيادس سوى ساعتين اثنتين!

فقد كان اغتباطه عظيما «بالأشياء» التي زينت له نزواته الاستيلاء عليها فعاد إلى «المنتزه» عودة الفاتح الظافر، ولما استوى على سريره ليستريح من عناء مجهوده أمر بأن يعرضوها أمامه مرة أخرى فاستحلاها وازداد اغتباطا بها!

وفي غمرة هذا الاغتباط أدنى إليه التليفون وكلمني ليقول لي إنه اضطر إلى العودة إلى «المنتزه» مسرعا بدون أن يراني لارتباطه بموعد مهم، وأنه يأمل أن تكون رسالته قد بلغتني في حينها فلم يطل انتظاري!

وفي غمرة هذا الاغتباط شعر بالارتياح الذي تجلى في روح حديثه ولهجته، ولم أدر يومئذ إلى أي سبب أعزوه أو إلى أي عامل أرجعه!

وكنت حتى ذلك الحين أظن أنني «عرفت» فاروق، ولكن اتضح لي يومئذ أن في نزواته نواحي لم أعرفها بعد، وأني قد لا أعرف بعضها أبدا.

وقد كان من المحال أن أتوقع أن تسول له نفسه يوما أن يعبث بحقائب شقيقته وأن يراوده الطمع في جانب من محتوياتها، ولولا عبارة قيلت أمامي عرضا لظلَّت قصة هذه الحقائب مجهولة مني غير أن هذه العبارة التي ترامت إلى سمعي صدفة استرعت انتباهي فلم أزل أتعقب ما أغلق عليّ من معانيها ومراميها حتى عرفت القصة بحذافيرها وأحطت بها من جميع نواحيها.

واهتممت بمعرفة ماذا صنعت الإمبراطورة لما جلبوا لها حقائبها ولاحظت أن يدا غريبة قد لعبت بأقفالها وامتدت إلى محتوياتها، فقيل لي إنها وقفت تنظر إليها مذهولة ولم تتفوه بكلمة واحدة في بادئ الأمر، ثم قالت: إن جميع الأقفال كانت سليمة عند نقل الحقائب من الجناح الخاص بها في القصر الإمبراطوري إلى مطار طهران، فسألتها إحدى السيدتين اللتين كانتا معها: ألا يحتمل أن تكون الحقائب قد فتشت بأمر من الشاه قبل نقلها من القصر؟ فهزت رأسها وقالت بالفرنسية: «مستحيل»، ثم أردفت ذلك بقولها: «ولماذا يفتشها؟»... كأنما أرادت أن تقول إن العلاقات بيننا على ما يرام وقد غادرت طهران بموافقته ورضائه فلماذا يقدم إذن على تفتيش حقائبي؟

ولما زال عنها بعض ذهولها رغبت إلى وصيفتها في أن تعاونها على تفقد

محتويات الحقائب لتحصر ما انتزع منها، وقد تذكرت جانبا منها ولم تسعفها الذاكرة في تذكر الجانب الآخر، وبينما كانت تتفقد حقائب الفراء ومعاطف الفراء قالت بالفرنسية كأنها تخاطب نفسها : أنا واثقة من أن هذه الحقائب قد فتحت هنا.

واقترحت عليها إحدى السيدتين أن تستدعى كبير خدم القصور الملكية، وأن تطلعه على أقفال الحقائب وتخبره أن هناك أشياء كثيرة قد أخذت منها، إذ لا يجوز السكوت على ما حدث بحال ما.

وتشاغلت الإمبراطورة عن التعقيب على هذا الاقتراح كأنه لم يطرق سمعها.

وبينما كانت غارقة في تفكيرها استأذن سليمان قاسم رئيس خدم القصور الملكية في مقابلتها بحجة أنه يود «أن يتلقى أوامر جلالتها ورغباتها».

وكانت فوزية تعرفه منذ حداثتها، وتعطف عليه عطفا خاصا، فحيته تحية لطيفة، ولم توجه إليه أي سؤال بشأن الحقائب كأن أمرها لايعنيها، ولكن رئيس الخدم قال لها من تلقاء نفسه : «إن مولانا هو الذي فتح هذه الحقائب بيده!».

وأطرقت الإمبراطورة . . . فغادر سليمان قاسم الحجرة مهرولا حتى لا يزيد الموقف حرجا.

وأدركت فوزية أن رئيس الخدم لم يلتمس مقابلتها ليتلقى أوامرها كما ادعى، بل سعى إليها ليدفع عنه شبهتها وليبرئ ذمته أمامها مع علمه بخطورة سعيه وسوء عواقبه لو نمى خبره إلى سيده!

ولما رفعت الإمبراطورة رأسها كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ثم قالت للسيدتين : إننا لم نسمع شيئا!

ولم تنبس السيدتان ببنت شفة، وكانت إحداهما شقيقتها فائزة والأخرى وصيفتها.

ونهضت فائزة وقبلت شقيقتها، وأعطتها منديلها لتكفكف به دموعها.

وأيقنت فائزة أن فوزية لم تذرف الدمع أسفا على ما اختفى من محتويات حقائبها، ولكنها امتثلت لرغبتها فلم تعقب بكلمة واحدة على ما أنبأها به رئيس خدم القصور الملكية.

ولم تخاطب فوزية شقيقها في هذا الموضوع قط!

وكان من الطبيعي أن يؤدي بي البحث والاستقصاء إلى الاستفسار عن أنواع الأشياء التي اختفت من حقائب الإمبراطورة ، فعلمت أنها كانت «تشكيلة» من الفراء ومعاطف الفراء والمعاطف العادية ، وفساتين السهرة ، وحقائب اليد ، وأدوات الزينة ، والروائح العطرية ، والطرف الصغيرة على اختلاف أصنافها وأشكالها وبعضها من الذهب ، والبعض الآخر من الذهب المرصع بحجارة كريمة .

أما «الخسارة» في المجوهرات فكانت يسيرة لأن الإمبراطورة جمعت أغلاها في حقيبة صغيرة لم تفارق يد خادمتها الخاصة حتى ساعة وصولها إلى قصر أنطونيادس ، فلم تلق مصير الحقائب التي عني فاروق «بإلقاء نظرة عليها» !

وهنا لا يسع المرء إلا أن يسأل : وهل كان فاروق محتاجا إلى فراء ، أو إلى معاطف فراء ، أو إلى فساتين وحقائب يد ، أو إلى أدوات وطرف للزينة ، حتى يسطو على الحقائب التي سطا عليها؟

هل كان مفتقرا إلى هذه الأشياء ، عاجزا عن شراء ما يماثلها ، حتى يزين له الشيطان أن يسرقها من شقيقته وضيفته؟

هل كانت هذه الأشياء فريدة في نوعها ، لا يستطيع أن يجد لها بديلا ، حتى يحرضه الغرور وحب الاقتناء على ارتكاب ما ارتكب في سبيل الاستيلاء عليها؟

إن الرد على كل سؤال من هذه الأسئلة هو : حتما لا !

فقد كان يستطيع أن يشتري عشرات الفراء ومعاطف الفراء والمعاطف العادية والفساتين وحقائب اليد وأدوات الزينة والتجمل والتبرج ، من غير أن يؤثر ذلك في ثروته بحال ما!

بل إن موارده المالية في يوم أو يومين كانت تكفيه لشراء ما يضارع الأشياء التي خطفها من حقائب شقيقته ، أو اقتناء ما يمتاز عليها نوعا ويفوقها عددا!

ولم يكن بين الأشياء التي اغتصبها من شقيقته شيء واحد لا يتيسر له ابتياع مثله أو ما يشبهه ، فقد كانت جميعا أشياء يسهل العثور عليها في الأسواق متى توافر المال اللازم لابتياعها!

إذن لماذا اقترف ما اقترفه، ولماذا أخذ تلك الأشياء؟

كانت «فريدة» لاتزال زوجته الشرعية في ذلك ، ولكن خزائنها كنت تضم بين جوانبها ما لا يحتاج قط إلى مدد من حقائب الإمبراطورة أوغير الإمبراطورة .

ثم إن الخلاف الذي نشأ بين فاروق وفريدة وأفضى إلى طلاقها كان يومئذ في مرحلته الأخيرة، ولم يكن فاروق في أثناء تلك المرحلة يرى فريدة أو يحادثها أو يجتمع بها، فلم يكن غرضه إذن من حرمان شقيقته مما انتزعه من حقائبها أن يهديه إلى زوجته ليوهمها بأنه اشتراه خصيصا لها!

فنحن والحالة هذه أمام سؤالين لا سؤال واحد!

السؤال الأول : لماذا أخذ فاروق تلك الأشياء؟

والسؤال الثاني : لمن أخذها ؟

ومن المعروف أن فاروق كان مصابا بمرض يدفعه إلى «الخطف» كلما تحركت فيه عوامله، فامتداد يده إلى محتويات حقائب شقيقته لم يكن سوى مظهر من مظاهر هذا المرض، وضرب آخر من ضروب ذلك «الخطف»، أما الأساس فكان دائما واحدا.

وأكبر دليل على أن ما وصفته بأنه مرض ـ كان في الحقيقة مرضًا ـ أن فاروق كان يمد يده إلى أشياء هو في غنى عنها لعدم حاجته إليها، وإلى أشياء يقتني مثلها وأحسن منها، أو إلى أشياء يستطيع أن يجد في السوق ما يضاهيها أو يفضل عليها، من غير أن تتأثر ماليته بما ينفقه على شرائها!

إذن لم يكن فاروق «يمد يده» عن حاجة ، أو رغبة في الاستئثار بتحفة نادرة، وإنما كان «يخطف» عن شهوة، وكانت هذه الشهوة في كثير من الأحوال أقوى من إرادته، وهي الأحوال التي كانت نزوات المرض وعوامله تسيطر فيها على مشيئته ومشاعره وتخضعها لتصرفات شهوته.

وكان قضاء هذه الشهوة يبعث فيه غبطة وانشراحا يفوقان بمراحل ما تستحقه «قيمة» الشيء المخطوف، فقد كان فرحه ينشأ قبل كل شيء عن شعوره بأنه نجح في إدراك وطره شأن كل ذي شهوة إذا وفق إلى قضاء شهوته.

ثم إنه كان يفرح لشعوره بأن الشيء المخطوف «مكسب» له ومغنم، مهما قلّت قيمته وبخس ثمنه!

ولم يكن، في غبطته وانشراحه، يذكر عواقب مسلكه، أو يقدر ما يخسره كرجل، وكملك، من جراء استهتاره. . . ولا جدال في أنه كان لشعوره بأنه «لايسأل» عما يقترف تأثير كبير في حضه على الاسترسال في غيّه والاستسلام لنزوات مرضه!

فهو إذن لما هشم أقفال حقائب الإمبراطورة واستولى على جانب من محتوياتها لم يفعل ذلك إلا مدفوعا بالشهوة التي تحدثت عنها، فلما قضيت أحس بالارتياح الذي أنساه قلقه وانزعاجه على نحو ما رأينا في الفصل السابق، ولاريب أنه لولا ثقته بأن شقيقته فوزية لن تسأله عما صنع ولن تتكلم، ولن تحتج، ولن ترفع صوتا، ولن تناقشه، ولن تحاسبه ـ أقول لولا ثقته بذلك لما كان يعرفه عن أخلاقها وطبائعها لتردد في الإقدام على ما أقدم عليه، ولكنه كان يعلم أن فوزية «ملاك» كما قال لي في وصفها!

أما الظاهرة الجديدة التي تجلت في حادث حقائب الإمبراطورة فهي أن فاروق لم «يخطف» هذه المرة ما خطفه ليحتفظ به لنفسه. . . وقد عرف عنه أنه كان يضيف إلى مجموعاته الخاصة معظم الأشياء التي كان يستولي عليها بكيفية ما. . . غير أنه لم يكن من المعقول أن يحتفظ بفراء ومعاطف فراء وفساتين وغير ذلك من لوازم زينة النساء وتجميلهن، ومع هذا فإن اغتباطه بها كان عظيما.

لماذا؟

لأنه رأى أنها تؤلف عدة هدايا لطيفة وجميلة يهديها إلى صديقاته وخليلاته بدون أن يدفع قرشا واحدا في سبيل شرائها، فهي والحالة هذه «مكسب» ومغنم إذ وفرت عليه المال الذي كان سيشتري به هدايا كثيرة استغنى الآن عن شرائها!

وهكذا لم ينظر فاروق إلى الموضوع إلاّ من هذه الناحية، ولم يقدر ما خسره في نظر فوزية وفائزة وكل من عرف قصة الحقائب، ولم يأسف له، ولم ينغص فرحه منغص. . . فقد كان مطمئنا إلى أن فوزية «ملاك» لا يتكلم!

وما لبث أن شرع في توزيع «الهدايا» على بعض حبيباته من غير أن يطلعهن على مصدرها طبعا، فسررن بها سرورا عظيما.

وكان فاروق بخيلا في هداياه إلى خليلاته وصديقاته بوجه عام، ولبعضهن في هذا الباب نوادر مضحكة كثيرة، وكان يبرر لأخصائه عدم سخائه في معاملة محظياته بأن في «فخر» اتصالهن به عوضا لهن عن المال والهدايا!

أما في الفترة التي عقبت حادث حقائب الإمبراطورة، فقد لاحظت صديقاته أن هداياه إليهن تحسنت وارتقت نوعا وشكلا، ففرحن بهذا التقدم وتفاءلن به خيرا دون أن يفطنَّ إلى سر هذا الكرم الفجائي الذي لم يألفنه في علاقاتهن به!

ولما امتدت إقامة فوزية في مصر وتعددت الحفلات والمجتمعات التي أصبحت تتردد عليها بصحبة فاروق كانت تلتقي في بعض مجالسه بنساء من اللواتي أهدى إليهن هدايا «مستخرجة» من حقائبها. . . ولم ينتبه فاروق لذلك، أو لم يكترث له، فلم يطلب إلى اللواتي آلت إليهن تلك الهدايا أن يمتنعن عن الظهور بها في المناسبات التي ستحضرها الإمبراطورة!. . . وكن من جهتهن يجهلن صلة الإمبراطورة بهداياه إليهن، فلا يتحرجن في الظهور بها أمامها، بل كن يتعمدن التحلي بها في تلك المناسبات في حرصهن على الظهور بأبهى ما عندهن «في الحفلات التي يشرفها جلالة الملك وجلالة الإمبراطورة» وبخاصة أن أغلبهن كن يعرفن عن فاروق أنه يحب أن تتحلى صديقاته بهداياه إليهن في المجتمعات التي تجمعهن به إذ كان يرى في ذلك دليلا على تقديرهن «لعطاياه» واعتزازهن بها!

ونتج عن ذلك أنه كثيرا ما كانت الإمبراطورة «تكتشف» بعض فرائها ومعاطفها وملابسها وحاجاتها وحليها الصغيرة على بعض السيدات المحيطات بها فكان «منظر هذه الأشياء على غيرها يؤلمها أكثر من تأسفها على فقدها» كما قالت يوما لإحدى المقربات إليها!

ومما اتفق لها في هذا الصدد أنه كان بين ضيوف فاروق في إحدى الحفلات الخاصة التي حضرتها سيدة أمريكية زينت صدرها بحلية صغيرة، جميلة الشكل، دقيقة الصنع، إيرانية الطراز أهداها إليها فاروق زاعما أنها من «مجموعته الخاصة»

فصدقته ، فقد كان من الطبيعي في نظرها وهو ملك شرقي واسع الثراء أن يقتني مجموعات منوعة من الحلي الشرقية ولاسيما الإيرانية لما بين البلاطين من نسب، ولم يخطر لها لحظة واحدة أن الحلية البديعة التي «اختارها» الملك من مجموعته الخاصة «ليخصها» قد اختيرت «خلسة» من حقائب الإمبراطورة شقيقته!

وقدمت هذه السيدة الأمريكية للإمبراطورة أسوة بسائر السيدات الحاضرات فلمحت الحلية التي على صدرها وعرفتها طبعا، ولكنها لم تقل شيئا.

وإذا سيدة أخرى تقول للحسناء الأمريكية: «ما أجمل الحلية التي تتحلين بها! . . . هل هي تركية الطراز؟».

فقالت الأمريكية: بل إيرانية الطراز!

وكأنما أرادت أن توجه تحية رقيقة إلى جلالة الإمبراطورة فمضت قائلة «ومن بواعث سروري أن ألبسها في هذه المناسبة وقد تشرفت بلقاء جلالة إمبراطورة إيران!».

والتفتت السيدتان إلى الإمبراطورة لترتيا وقع هذه المجاملة في نفسها فابتسمت ابتسامة خفيفة، ففسرتا هذه الابتسامة بأن جلالتها سرت بالتحية وتقبلتها قبولا حسنا.

واحتفظت السيدة الأمريكية بالحلية على صدرها.

وأبقت الإمبراطورة التفسير الحقيقي لابتسامتها سرا في قلبها!

وخفت السيدة الأمريكية إلى فاروق فرحة، جذلة، وقصت عليه ما دار بينها وبين الإمبراطورة بشأن الحلية «التي يعجب بها كل من يراها» فنظر إليها نظرة ذات مغزى وقال لها باسما: «وهل كنت تشكين في أنني أحسن الاختيار؟!»، فلمعت عيناها زهوا للتحية التي انطوت عليها هذه التورية، وصمتت كأن الحياء عقد لسانها.

بعد وصول فوزية إلى الإسكندرية بأيام كنت بين المدعوين الذين دعاهم فاروق إلى أول مأدبة أقامها لها، وأمر أن أجلس إلى يسارها «لأسهل لها الكلام» وأخبرني أنه كاشفها «بعلاقتي به ومكانتي عنده وأنها تستطيع أن تتكلم معي باطمئنان تام».

وجلس محمد علي رءوف، زوج فائزة، إلى يمينها.

وجلس فاروق في الجهة المقابلة لها من المائدة، وإلى يمنيه شقيقته فائزة.

وكانت فوزية قد استراحت من الرحلة التي أتعبتها، وأخذت تسترد نضارتها، فزال ما كان على وجهها من علامات الإعياء، وبدا جمالها على حقيقته.

ولن أعرض هنا لوصفها، فالذين لا يعرفونها يعرفون صورها، ولا أعرف صورا نسائية كثيرة تصدق في وصف «الأصل» صدق صور فوزية في وصفها.

وكانت فائزة كما قلت تجلس في الجهة المواجهة لنا، وكانت في ذلك الحين في ذروة شبابها وأوج جمالها . . . غير أن جمال فوزية كان من طراز آخر ومن نوع آخر.

كان جمال فوزية جمالا هادئا ناعما صافيا.

كان كل شيء في فوزية يتم على الهدوء والنعومة، والصفاء : مشيتها، وحركاتها، وإشاراتها ونظراتها الهادئة التي تتجلى فيها الوداعة، وصوتها الخافت الذي يكاد يكون همسا، وابتسامتها العذبة التي إن تحولت أحيانا إلى ضحكة عابرة فلا يمكن أن تنقلب أبدا إلى قهقهة صاخبة.

وقد رأيتها في مناسبات مختلفة فكانت المناسبة هي التي تتغير، أما هي فكانت لا تتغير قط، رأيتها في حفلات عامة، وفي حفلات خاصة، ورأيتها في سهرات عامة وفي سهرات خاصة، ورأيتها في مآدب رسمية وفي مآدب عائلية، ورأيتها في استقبالات ملكية وفي استقبالات عادية، ورأيتها في رحلات وعلى شاطئ البحر، فكانت في كل مناسبة، وفي كل مكان، وفي كل أوان، هي هي : هدوءا ونعومة، وصفاء، في غير تصنع، وفي غير تكلف!

أما جمال فائزة، فكان على نقيض جمال شقيقتها . . . كان وجهها وضاء كمصباح منير ولكن كنت تشعر أن هذا المصباح تضيئه نار لا تخبو جذوتها، وكذلك كانت فائزة بطبيعتها وأخلاقها قطعة من نار أو «حزمة من أعصاب» كما كان أصدقاؤها الإفرنج يقولون في وصفها.

والآن، وبعد هذه الصورة السريعة للشقيقتين اللتين أتاحت لي تلك المأدبة أول فرصة للمقابلة بينهما مجتمعتين، أعود إلى ما جرى لي في عشائي . . . ذلك العشاء الذي أجْلِسْتُ فيه إلى يسار فوزية بأمر من فاروق «لأسهل لها مهمة

الكلام». ولا أذكر أنني عانيت في مأدبة سابقة أو لاحقة مثل التعب الذي عانيته في تلك المأدبة لما بذلت من مجهود في حديثي مع فوزية.

كنت أعرف مما سمعته، ومما رأيته، أنها هادئة وقليلة الكلام، ولكني لم أتصور أنها تحافظ على هذا الحال حتى في وسط الأنوار الساطعة، والموسيقى الصاخبة، والرقص الدائر، والقهقهة التي يصل إلينا صوتها من كل جانب!

ولاحظت بعد جلوسنا إلى المائدة أنها غير مشغولة بالحديث مع جارها الآخر، فرأيت من حسن اللياقة أن أتصرف كما يتصرف الناس في المآدب عادة... فبدأت بموضوع ظننت أنه خير ما أستهل به الكلام في أول حديث بيننا!

وتبينت من وجهها أنها تصغي إليّ، وإنما لم أدر هل أعزو إصغاءها إلى رغبة في المجاملة أم إلى تقدير لموضوع الحديث؟... وحاولت أن أفوز منها بعبارة تضيء لي السبيل وترشدني إلى الاتجاه الذي أتجهه في حديثي، فباءت محاولتي بالفشل. فقررت أن أخرج من حيرتي بتغيير الموضوع... وطرقت موضوعا آخر، وبعد مجهود جديد لم أسمع في أثنائه ما أستدل به على مبلغ اهتمامها بما قلته. انتقلت إلى موضوع ثالث فلم يكن حظي في نهايته أوفر منه في نهاية الموضوعين السابقين!

وأعقبت ذلك بفترة «استراحة» أمسكت في خلالها عن كل كلام لربما تريد أن تتكلم مع غيري، أو لاحتمال أن يعدل جارها الآخر عن موقفه فيكلمها، أو لعل فاروق يشركها في الحديث الدائر بينه وبين جارتيه... فلما لم يحدث شيء من هذا كله، وطالت فترة الصمت، خشيت أن يدركها الملل، فاستأنفت كلامي وخضت موضوعا رابعا، فخامسا، فسادسا، فلم أظفر منها بأكثر من كلمة «وي» بالفرنسية (أي نعم) أو «نو» (أي كلا)... وحتى (وي) و «نو» كانتا لا تخرجان من فمها إلاّ حينما كانت لا تجد مندوحة عن ترديد إحدى الكلمتين!

ومع أنني توخيت التنويع في اختيار موضوعاتي، وراعيت الإيجاز في عباراتي، لم أعرف أي موضوع راقها أكثر من غيره، بل لم أعرف هل راقها موضوع ما من الموضوعات التي تناولها حديثي، وأخيرا رأيت كمحاولة أخيرة أن أقص عليها بعض النوادر، فلم تحركها نادرة واحدة، وخيل إليّ في وقت ما أنها تهم بالابتسام فتفاءلت، ثم اتضح لي أنه تفاؤل سابق لأوانه!

ولما قطعت كل رجاء سكت نهائيا.

وحانت مني التفاتة إلي الجانب الآخر من المائدة فالتقت عيني بعين فاروق، وكان يتتبع «سير الحالة» بين شقيقته وبيني من طرف خفي، فقال لي باسما: كيف حالك؟

فقلت له: يظهر يا أفندم أنني أفلست في الحديث إفلاسا تاما، ورسبت في الامتحان على طول الخط.

فقهقه ضاحكا ثم قال: ألم أقل لك إنك ستتعب وإنها ستتغلب عليك؟!

ولم تقل فوزية شيئا كأنها لم تسمع كلمة واحدة من كل ما قيل.

وسألها فاروق بالفرنسية هل هي مسرورة بسهرتها؟

فأجابته بقولها: «وى شيرى» (نعم يا حبيبي).

وجاءت المأدبة الثانية بعد المأدبة الأولى بثلاثة أيام، فكررت محاولتي، فحبطت هذه المرة حبوطها في المرة الأولى.

وفي المرتين لم يخفف من وقع الفشل في نفسي سوى شعوري بأن غيري لم يكن أكثر مني توفيقا في حديثه معها!

ومما عزز اقتناعي بأن هدوءها وقلة كلامها جزء من طبيعتها أنه لم يكن يبدو عليها في تلك السهرات ما ينم عن أقل ملل أو ضجر، بل استرعى انتباهي أنها كانت تزداد يقظة بعد منتصف الليل فأرجعت ذلك في بادئ الأمر إلى رغبتها في مجاراة شقيقها في سهرة مجاملة له، ثم ظهر لي بعد أن تعليلي لهذه الظاهرة كان خطأ وأنها مع هدوئها وسكوتها ورصانتها في وسط الضجة المحيطة بها تحب السهر وتلتمسه ولاتستعين على تحمله بغير التدخين قانعة بمشاهدة ما يدور حولها والإصغاء إلى الأحاديث التي تجري على مسمع منها!

وكان فاروق في الفترة الأولى التي عقبت وصولها إلى مصر، يعين لها أسماء الرجال الذين يمكنها أن تقبل دعوتهم إلى الرقص في المناسبات التي تحضرها بصحبته، وذلك حرصا منه - كما كان يقول - على مقامها كإمبراطورة، ومنعًا لكل

قيل وقال في دوائر البلاط الإمبراطوري الإيراني، وكان أول شرط يراعيه في اختيارهم أن يكونوا من المرموقين بعطف خاص منه بقطع النظر عن درجة براعتهم في الرقص وعن مدى استعداد شقيقته للرقص معهم! . . . ومن حسن الحظ أنها كانت لا تقيم للرقص اعتبارا يذكر ولا يضايقها بتاتا أن تقضي سهرتها جالسة ساكنة وإن رقص الآخرون وكرروا الرقص غير مرة؛ ولذا لم يكن يهمها مع من ترقص أو كيف ترقص ، وقد كان منظرها وهي تنهض للرقص ينبئ على الدوام بأنها تنهض لتأدية واجب اجتماعي كان يسرها كثيرا أن تعفي منه!

وفي مأدبة العشاء الثالثة جلست إلى يسار فوزية حائرا مترددا لا أدري أي السبل أسلك هذه المرة. . . وطال مكثي على هذه الحال. . . ثم شعرت بأن الأنظار مصوبة إلينا فخفت أن يقال إن الإمبراطورة متبرمة بمجلسها متأففة منه، أو إنها جالسة بين رجلين أنساهما الشره ما ينبغي عليهما نحوها، فاغتنمت أول فرصة مناسبة واستهللت حديثي معها وأنا غير مؤمل أن يسفر عن نتيجة جديدة، وإنما أقدمت عليه على أساس أنه فرض يُحتِّمه «صون المظاهر» . . لا أكثر!

ولكن ما شرعت في الكلام حتى لاحظت أن في كيفية إنصاتها إليّ شيئا جديدا إن دلّ على شيء فعلى أنها مرتاحة إلى الحديث مقبلة عليه؛ ولذلك لما فرغت من سرد أول حكاية ولم تعقب عليها لم أجفل، بل اعتبرت كيفية إنصاتها إليّ هذه الليلة بداية طيبة خليقة بأن تبعث فيّ الأمل والرجاء، فاستطردت إلى حكاية ثانية وأنا لا أطمع في أكثر من أن تواظب على طريقتها الجديدة في الاستماع والإصغاء. . . غير أنه لما استتممت حكايتي فوجئت بشفتيها تفتران عن ابتسامة جميلة لم تحاول إخفاءها!

وفي الحال التفت إليّ فاروق وقطع حديثه مع جارته، وخاطبته بالفرنسية بصوت مسموع قائلا : هل تعلم جلالتك أنه حدث الآن حادث تاريخي؟

فقال مستغربا : أي حادث؟

فقلت : لقد ابتسمت الإمبراطورة!

ولم تتمالك فوزية نفسها عن الابتسام لهذا الإعلان!

وفي تلك الليلة شاهد الناس الإمبراطورة تبتسم لأول مرة منذ ظهورها في المجتمعات !

وكأنما شقّ عليها أن أتوهم أنها جافتني في المرتين السابقتين فقالت لي في وداعة : إني لم أكن أعرفك قبلا .

وأخذت من تلك الليلة أتطلع إلى المناسبات التي ستتيح لي لقاءها لكي أخبر «سخاءها» في الحديث بعدما «عرفتني» وبعدما افتر ثغرها عن أول ابتسامة!

فإذا هي في أول مناسبة منها تسألني بالفرنسية قائلة : كيف حال زوجتك؟

وكان هذا السؤال بكلماته «الثلاث» هو كل التقدم الذي تقدمه حديثها وكل الزيادة التي طرأت على كلمتي «وي» و «نو» !

ولكنها توسعت في ابتسامها فابتسمت ثلاث مرات وشرعت في الابتسام مرتين!

وفي السنتين اللتين تلتا ذلك لم يتغير حديثها معي حرفا واحدا ولم تضف إليه لفظا واحدا . . . ففي كل مرة كانت تراني بدون زوجتي كانت تسألني : كيف حال زوجتك؟

وإلاّ اقتصر كلامها على «وي» و «نو» !

وبعد انقضاء السنتين شاهدت ابنتي بصحبة «الأميرتين» فريال وفوزية في أول زيارة لهما لحديقة الحيوان . . . ومن ذلك اليوم عدلت سؤالها التقليدي وأضافت إليه كلمتين فبعدما كانت تسألني كيف حال زوجتك أصبح السؤال : كيف حال زوجتك وابنتك ؟ . . . ثم كنا نعود إلى «وي» و «نو» !

واستمر حديثها «خماسي» الكلمات على هذه الصورة ثلاث سنوات أخرى، أي حتى قيام الثورة!

ولا أظن أن عدد المرات التي وجهت إليّ فيها عبارة «إضافية» في أثناء تلك السنوات مجتمعة يزيد على ثلاث مرات أو أربع! . . . ومع ذلك لا أعتقد أن رجالا كثيرين من جلساء فاروق استطاعوا أن يزعموا أنها كلمتهم أكثر من مرة وأن كلامها معهم جاوز كلمة واحدة : إذ كان لا مفر لها أن تقول عند اللزوم «متشكرة» أو «مرسي»!

وكم من مرة ضحكت في سري وأنا أتتبع رقصها مع كبار الحاضرين . . . فقد كانت الرقصة تبدأ وتنتهي بدون أن تتفوه بعبارة واحدة ، وبدون أن يرتسم على وجهها ولو مشروع ابتسامة واحدة ، مهما اجتهد الرجل الذي يراقصها في تنميق حديثه ، وكان «المجتهدون» في أغلب الأحيان من الأجانب الذين يجهلون خلقها ، أما القريبون أو المقربون فكانوا يراقصونها صامتين مستفيدين من تجارب الذين اجتهدوا وفشلوا .

وكانت فوزية تصل إلى مكان الدعوة إما بصحبة فاروق أو برفقة شقيقتها وقرينها محمد علي رءوف ووصيفتها ، فإذا كانت بصحبة فاروق أحاطها عند دخول المكان بجميع مظاهر العناية اللائقة بها كإمبراطورة وكشقيقة كبرى ، وإذا التقى بها برفقة شقيقتها تبادلا القبلات على مرأى من جميع الناس ، ثم قبل فائزة وقبلته !

فقد كان من عادة فاروق وشقيقاته أن يتبادلوا القبلات في كل مكان يلتقون فيه ، سواء كان المكان في القصر ، أو في بيت إحداهن ، أو في محل عام ، وسواء انقضى على «اللقاء السابق» بضع ساعات أو بضعة أيام أو بضعة أسابيع أو أشهر !

وقد رأيته يغفل تقبيل شقيقاته أحيانا عند التقائهم في بعض المناسبات الخاصة ، ولكنه لم يغفله قط في المجتمعات العامة والحفلات الكبيرة ليظهر بمظهر الشقيق الأكبر البار بشقيقاته العطوف عليهن !

وأذكر أنه دعا مرة بعض أصدقائه إلى العشاء في فندق «مينا هاوس» بمناسبة عيد من الأعياد ، فلما دخلنا قاعة الأكل وجلسنا إلى المائدة التي فردت له ولضيوفه في أحد جوانب القاعة بصرنا بالملكة السابقة نازلي جالسة إلى إحدى الموائد الكبيرة التي مدت في وسط القاعة وحولها لفيف من صديقاتها وأصدقائها ، فلم يكن من فاروق إلا أن نهض ونزل إلى القاعة واتجه إلى والدته فقبلها وقبلته وبعدما تبادلا بعض العبارات ودعها إلى مائدته !

وكان الخلاف بينهما في ذلك الحين قد تفاقم وبات ينذر بقرب تقاطعهما ، وقد أوغر صدرها كفه عن الاتصال بها والسؤال عنها فعاندته وقابلت مسلكه بمثله . . . ولكن لما صادفها في فندق «مينا هاوس» عَنّ له أن يستغل المناسبة وأن يتصرف

تصرفا يحسن وقعه في نفوس الحاضرين فيطروا بر الابن بأمه ويثنوا على وفائه لها . . . وهم يجهلون ما بينهما من نفور وشقاق!

وفي الغد اتخذ فاروق من التدابير ما يكفل عدم تكرر التقائه بأمه في الأماكن العامة في المستقبل!

وكان لفاروق في المآدب الخاصة التي يقيمها في الأماكن العامة «بروتوكول» خاص وضعه بنفسه ولقنه للمحيطين به، وكان هؤلاء يلقنونه بدورهم «للمستجدين» من المدعوين، وكان معظمه يسري على الضيوف المصريين والأجانب على السواء.

ومن ذلك كان على مدعويه، من مصريين وأجانب، ألاّ يدخنوا حتى يشعل سيجاره، إلاّ إذا أذن لهم بالتدخين قبله، وكانت فوزية وفائزة أول من يحترم هذا التقليد.

أما بعد ذلك، فكانوا جميعا أحرارا في مداومة التدخين ولو انقطع هو عنه.

وكان لا يجد غضاضة في أن تدخن السيدات في حضرته سواء كن مصريات أو أجنبيات.

ومع أنه كان لا يشرب الخمر كانت الشمبانيا ـ أو الوسكي ـ تقدم للضيوف الأجانب بموافقته.

وكان يرى أن عدد الكئوس يزيد زيادة جلية على عدد الضيوف الأجانب، فيغض الطرف عنها ويتظاهر بأن نظره لا يحيط بجميع الشاربين!

غير أنه كثيرا ما كانت تصدر عنه عبارة تدل على أن الحقيقة غير خافية عليه!

وكانت فوزية لا تميل إلى الخمر، ولا تتلذذ بها، ولا تحتسيها إلا مسايرة ومجاملة.

أما فائزة فلا يمكنني أن أقول عنها ذلك، ولو أنها وزوجها كانا يشربان بحرص واعتدال عند وجودهما مع فاروق خوفا من ملاحظاته وانتقاداته!

ومن الأمور التي كان فاروق يمقتها مقتا شديدا «إصلاح» السيدات لوجوههن وهن جالسات إلى المائدة، فكان على السيدة التي تريد بعد الأكل أن تعيد النظر

على «بودرة» الوجه وأحمر الشفتين أن تغادر المائدة وأن تذهب إلى الحجرة المخصصة «لتواليت السيدات» فتصلح هندامها فيها، ثم تعود إلى مجلسها، وكانت فوزية نفسها تخضع لهذا «التقليد» خضوع سائر السيدات له بشرط أن ترافقها وصيفتها أو سيدة أخرى.

وكان فاروق إذا لمح سيدة من السيدات الجالسات معه متجهة إلى حجرة «التواليت» وحدها طلب دائما إلى سيدة أخرى أن تلحق بها.

وكثيرا ما كان هو نفسه الذي ينبه مدعواته إلى حاجتهن إلى شيء من «التواليت» بقوله بالفرنسية : يخيل إليّ أن بعض الأنوف أخذت تلمع!

وكان ضيوفه لا يشتركون في الرقص إلاّ إذا نهض هو ليرقص فيحذو حذوه الراغبون في ذلك، وكان في بعض الأحيان التي لا يرقص فيها يأذن لضيوفه بالرقص دون أن يتقيدوا به، وكان في أحيان أخرى لا يرقص ولا يبدى استعداداً لمشاهدة أحد من ضيوفه راقصا، فيلتزم الجميع أماكنهم طول السهرة امتثالا لمزاجه المسير بنزواته.

ومنذ أن أخذت فوزية تحضر مآدبه وحفلاته الخاصة كان يرقص معها دائما الرقصة الأولى ثم يراقص الضيفة التي هي موضع «عناية خاصة» من جانبه، وكان يكتفي بهاتين الرقصتين في أغلب المناسبات إذ سرعان ما كان جسمه يتصبب عرقا في حلبة الرقص . . . فإذا أضاف إليهما أحيانا رقصة ثالثة مع سيدة أخرى جزمنا بأن حبه للرقص ليس الحافز الأول له على ذلك!

الفصل الرابع

الواقع يكذب التقارير

لم تتخلف فوزية عن مأدبة واحدة أو حفلة واحدة من المآدب والحفلات التي دعاها إليها فاروق بعد وصولها إلى الإسكندرية من إيران.

ولم يبد عليها في جميع تلك المناسبات ما يدل على أنها امرأة حزينة تعيسة، يدمي الشقاء قلبها، على نحو ما صورتها تلك التقارير السرية التي تلقاها فاروق من طهران!

ولئن كان وجهها قد احتفظ بتلك المسحة الطفيفة الشبيهة بالكآبة فإنا لم نستغربها ولم نقلق لها . . . فقد تجلت فيها منذ طفولتها ولازمتها في جميع مراحل حياتها كما أجمعت على ذلك أقوال الذين عرفوها في سني حداثتها.

بل إن العين البصيرة تبنت في مظهر فوزية، بعد وصولها إلى الإسكندرية، علامات كثيرة لا تجتمع في المرأة عادة إلا إذا كانت ناعمة البال، راضية مطمئنة!

ومن تلك العلامات أو الدلالات أنه مع كثرة الملابس التي جلبتها معها من طهران ـ وكانت كلها مستوردة من باريس ـ لم تكد تنزل الإسكندرية حتى جعلت الاتصال بأشهر خياطاتها واستقبالهن، واقتناء أحدث «الموديلات» منهن، في مقدمة مشاغلها!

وما يقال عن الفساتين يقال عما يتفرع عليها من مقتضيات!

وكان من غير المعقول في نظري أن امرأة قيل عنها إنها تعيش في «جحيم» تقبل على الاهتمام بفساتينها وثيابها بهذه الحماسة العظيمة بين عشية وضحاها، وخاصة إذا كانت في غير حاجة ملحة إليها . . . وكانت حقائبها على ما علمت تضيق بأحدث «الموديلات» الباريسية وغيرها .

ولم تكن ظاهرة الفساتين الظاهرة الوحيدة التي وقفت عندها متأملا .

ففي كل مأدبة، وفي كل حفلة، كنت أنعم النظر في «تواليت» وجهها فأسمع صوتا خفيا يقول لي : انظر هذا التبرج وافحص ما في أجزائه وتفاصيله من دقة وعناية وفكر فيما اقتضاه ذلك من مزاج ووقت وجهد ثم قل هل تصدق أنه من المتيسر لامرأة قيل إن الحزن حرمها النوم أن تبرز هاتين العينين النجلاوين وأن تعزز جمالهما بهذه المهارة وهذا الإتقان، وهل تصدق أن هذا الوجه الذي أحكمت زينته وجه امرأة أدبر هناؤها وذبلت حياتها؟ . . . وأين تجد في هذا كله ما يؤيد فقرة واحدة من فقرات تلك التقارير السرية، وهي كما تعلم ليست المرأة التي تبدي غير ما تبطن وتظهر غير ما تضمر أو تتكلف حالة ليست طبيعة فيها؟ !

وسألت كيف تمضي الإمبراطورة يومها في قصر أنطونيادس؟

فقيل لي إنها تستيقظ من نومها متأخرة، ولاتغادر فراشها، إذ يطيب لها في تلك الساعة أن تعكف على قراءة رواياتها وهي مستلقية على وساداتها، وتفطر فطورا خفيفا سريعا لا يبعدها عن كتبها ولا يلهيها عنها .

ويتوقف نشاطها بعد ذلك على برنامج يومها، فإذا كانت ذاهبة إلى قصر «المنتزه» لتستحم في البحر مع فاروق ولتتغدى معه نهضت واستعدت للذهاب إليه، وإلا آثرت البقاء في فراشها والاستمرار في مطالعاتها إلى أن يأزف موعد غدائها، ويندر أن تطلبه قبل الساعة الرابعة بعد الظهر، ثم تتأهب لاستقبال الخياطات أو بعض الزائرات، وإذا لم تكن مرتبطة بمقابلات تباطأت في ارتداء ملابسها وقضت بعض الوقت مع شقيقتها أو مع وصيفتها إلى أن تحل الساعة التي يتعين عليها فيها أن تبدأ هندامها (التواليت) ليتسنى لها لقاء فاروق في الموعد المتفق عليه .

وكان هندامها يستغرق وقتا طويلا، وقلما كانت تفرغ منه في الوقت المحدد، وكانت وصيفتها تلقى عناء كثيرا من هذه الناحية بوصفها المسئولة عن مواعيدها وعن ضرورة تقيدها بها ، وكثيرا ما أغضبت فاروق لتراخيها فيها ووصولها إلى بعض الحفلات متأخرة مع أنه هو نفسه كان شديد الفوضى في مواعيده غير الرسمية .

وفي هذا كله أيضا لم أكتشف أثرا واحدا «للشقاء» الذي أكدت التقارير السرية أنه سلبها بهجة الحياة وهدد مصيرها!

أما من جهة حالتها العصبية وقواها العقلية فلولا ما ذكرته التقارير السرية عنها، ولولا حديث فاروق معي بشأنها، لما اتجه تفكيري إلى هذا الموضوع بتاتا ولما شغلت به نفسي لحظة واحدة.

وقد نوهت في صفحة سابقة بأن مظهر فوزية ومسلكها يوم وصولها إلى الإسكندرية كانا جديرين بتبديد ما ساور فاروق من مخاوف من هذه الناحية، ولكنه آثر التريث ريثما يتحقق من ذلك ويستوثق به.

وأتاح لي الجلوس إلى جانبها في مآدب ومناسبات كثيرة فرصة حسنة لأخبر أحوالها من وجوه شتى، فانصرفت كل مرة من جوارها وأنا أقوى إيمانا «بسلامتها» وأشد اقتناعا بكذب ما ألمحت إليه التقارير السرية وبهتانه، وأكثر ميلا إلى الاعتقاد بأن كاتب تلك التقارير كان سيئ النية، ملتوي القصد، ملفقا لغرض في نفسه!

وتحدثت عنها مع غير واحد من المتصلين بها والقائمين على خدمتها، وكانت أسئلتي إليهم منوعة ومتعددة، فشملت نواحي مختلفة في حياتها، فخرجت من بحثي وتحقيقي بنتيجة أيدت ما رسخ في ذهني من بادئ الأمر وقوّت شبهاتي في مؤلف التقارير السرية وملفقها!

وأردت يوما أن «أنكش» أحد خدمها فقلت في تخضيضي له على الكلام: هل عندها يا ترى بعض «عصبية» مولانا؟

وكنت أعني «بالعصبية» نزواته الشخصية.

وأدرك الرجل غرضي من هذا السؤال، فأجابني على الفور بقوله: ياريت مولانا عنده «نص» حلمها!

وأعجبت يومئذ إعجابا شديدا بهذا الرد الذي أملته عليه لباقته الفطرية... فقال ما أراد قوله بألطف لفظ وأخف تعبير.

بقي الأمر الآخر، وهو هل كانت فوزية على خلاف مع الشاه؟

وردي الأول على هذا السؤال أنه في جميع المناسبات التي جمعتني بها لم أسمع

منها، ولو تلميحا، ما يستدل به على أن هناك خلافا بينها وبين الشاه، مع أنني أشرت في خلال أحاديثي معها إلى موضوعات كثيرة كان من العسير عليها أن تقابلها بما قابلتها به لو كانت علاقاتها بالشاه على غير ما يرام.

بل إن جميع ردودها، سواء كان الرد ابتسامة أو كلمة، كانت «بروح» تلك الحركة التي بدرت منها عقب دخولها الجناح الخاص بها في قصر أنطونيادس، وأعني حركة الصورة الفوتوغرافية التي أخرجتها من حقيبتها الصغيرة وعرضتها في أبرز مكان في حجرة جلوسها الخصوصية.

وسألتها مرة عن ابنتها وهل تشبه جلالتها أم جلالة الشاه؟

وكان من المعروف أن الأميرة الصغيرة تشبه جلالة والدها شبها كبيرا، فقصدت أن أعلم كيف ستلقى إليّ ذلك وبأي «نغمة» ستلقيه... لما كنت أجد في هذه القرائن الصغيرة من معونة ذات فائدة عظيمة في استيفاء تحرياتي عن حقيقة الموقف بينها وبين الشاه!

فقالت بدون تردد: فيها ملامح منا نحن الاثنين، ولكنها تشبه زوجي أكثر مما تشبهني!

لم تقل تشبه «جلالته» أكثر مما تشبهني.

ولم تقل تشبه «الشاه» أكثر مما تشبهني.

ولم تقل تشبه «والدها» أكثر مما تشبهني.

ولم تقل «تشبهه هو» أكثر مما تشبهني.

وإنما قالت: تشبه «زوجي» أكثر مما تشبهني!

فقلت في نفسي: هل هذه لهجة امرأة على «خلاف» مع زوجها؟

وكانت قبل ذلك بلحظة قد قالت: فيها ملامح منا نحن الاثنين!

ولم تقل مثلا: فيها ملامح من كل واحد منا.

أو: فيها ملامح منه وملامح أخرى مني.

كلا.. بل قالت «منا نحن الاثنين»!

فهل يوحي الشقاق بمثل هذه اللهجة؟

وهل يمكن أن تكون هذه اللهجة لهجة امرأة يسود الشقاء حياتها الزوجية؟

وفي كل مرة جاء ذكر الشاه في أحاديثي كنت لا أقنع بالكلمة التي أسمعها منها وإنما كنت «أرصد» وجهها بعناية مستطلعا وقع حديثي في نفسها، فلم أر في ملامحها قط ما قلل من ثقتي بصدق لهجتها!

وباحثت في ذلك بعض الذين كانوا على صلة مستمرة بها في قصر «أنطونيادس» فأيدت أقوالهم ما نوهت به من دلالات، وأجمع رأيهم على أنهم لم يكتشفوا في أحاديثها وحركاتها ما ينم على أن هناك فتورا ما في العلاقات بينها وبين الشاه!

و كانت فائزة دائمة التردد عليها، وكانت كل منهما تحب الأخرى حبا جما وتخلص لها إخلاصا صادقا، ولم تكن فوزية تفتح قلبها إلا لفائزة وحدها، فلو كانت غير سعيدة مع زوجها، ولو كانت تعيسة وشقية كما قيل في التقارير السرية، لأفضت حتما إلى شقيقتها بأسباب عذابها ومحنتها. . . غير أن فائزة أكدت لي مرارا أن ما سمعته منها عن حياتها الزوجية يناقض شائعات التقارير السرية ورواياتها، ويدحضها من أساسها!

وأفرحتني جميع هذه النتائج. . . فقد كنا في غنى عن مشكلات جديدة. . . فضلا عن أنها جاءت مطابقة لما قلته لفاروق من اليوم الأول، فصممت على مواجهته بها إذا عاد إلى هذا الموضوع وردّد ما تضمنته التقارير السرية!

غير أنه أمسك عن كل كلام عنه، فكان آخر حديث لنا في صدده هو ذلك الحديث الذي دار بيننا في حديقة قصر أنطونيادس يوم وصول الإمبراطورة إلى الإسكندرية.

ولما لاحظت أنه لا يستأنف هذا الحديث، ولا يعود إلى موضوعه، مع أننا نجتمع بفوزية كل يوم تقريبا، لم أشك في أنه يتعمد عدم إثارته، وعللت مسلكه بأن الأكاذيب والفرايا التي قامت عليها التقارير السرية قد استبانت له، فاطمأن إلى أن شقيقته لا تعيش في جحيم، وأن العلاقات بينها وبين زوجها طبيعية لا تشوبها شائبة، واقتنع بأن أعصابها وقواها العقلية سليمة، وأنه ليس هناك ظل من الحقيقة لما ابتكره خيال كاتب التقارير السرية وصانعها.

وكنت أعرف عن أخلاق فاروق وطبائعه أنه إذا واجه ما يكذب أخبارا صدقها من غير أن يحققها، أو ينقض رواية أخذ بها من غير أن يمحصها، أو يزيح النقاب عن وجوه النقص في رأي ارتآه عن شهوة أو معاندة . أقول كنت أعرف عن أخلاقه وطبائعه أنه إذا واجه حالة من هذه الحالات تحرز من الكلام في موضوعها وامتنع عن كل حديث بشأنها وحاول أن يسدل عليها بسكوته ستارا من النسيان، فلا يظهر بمظهر من أخطأ ثم اضطرته الحقائق أو الظروف إلى التسليم بخطئه . . . وكنا نحن من جهتنا نجاريه في سكوته ونقابل صمته بمثله فنجنبه حرجا يبغي الإفلات منه وننقذه من موقف يشق عليه أن يقفه منا!

ولعلمي بهذه الناحية من أخلاق وطبائع فاروق قلت لنفسي إنه إذا كان لا يعاود محادثتي في أحوال شقيقته، فلأنه استوثق الآن من إفك المعلومات التي أريد تضليله بها . . . ولأنه يعز عليه أن يعترف بأنه كان مخطئا في اعتماده اعتمادا كليا على إخلاص صاحب موردها!

وكأنما أردت أن أزيد نفسي راحة واطمئنانا، فقلت إنه لو كان فاروق مقيما على قلقه وجزعه لما صبر على هذا السكوت، ولما كان هذا شأنه معنا، ولما بدا في الأيام الأخيرة بهذا المرح، وهذا الانشراح .

ولم يدر في خلدي في ذلك الحين أنني بعيد عن الحقيقة بُعد القاهرة عن طهران . . . وأن السبب الحقيقي لسكوت فاروق يختلف عن السبب الذي عللته به اختلاف الليل عن النهار . . . وأن بين الباعث الحقيقي لارتياحه وانشراحه والباعث الذي عزوتهما إليه بونا شاسعا، الأرض أحد طرفيه والمريخ طرفه الآخر!

كنت أحسب أنني عرفت «فاروق»، و «فهمته» وخبرته، وبلوته .

وكنت أحسب أنني أحطت بأخلاقه، ،وطَوِيته، وأطواره، ونزواته .

وعلى هذا الأساس بنيت استنتاجي وتقديري، فاعتقدت أنه طوى تلك التقارير السرية المشئومة وطوى معها أحاديثه عنها بهواجسها ومخاوفها . . . وأراحنا من مشكلة اسمها «مشكلة فوزية»!

فإذا الأيام والأحداث تثبت لي أن تفاؤلي كان في غير محله، وأنني كنت على خطأ مبين!

فقد كان في فاروق رجل آخر لم أعرفه، ولم يعرفه أحد.

وبينما بنيت استنتاجي وتقديري على ما أعلمه عن الرجل الذي أعرفه، كان الرجل الذي لا أعرفه يفكر تفكيرا آخر ويعد العدة لخطة أخرى!!

وفي ذات ليلة قال لي فاروق همسا: لا تكلم فوزية عن ابنتها ولاتذكرها أمامها.

ولم أكن قد رأيته من ثلاثة أيام، فأذهلني أمره وأردت أن أستطلعه سره، فلم يتيسر لي ذلك، فقد كانت فوزية جالسة على مقربة منا.

ولاحظت بعد ذلك أنه في حالة عصبية شديدة، وأنه يتجنب الانفراد بي، فأدركت أنه لايروم أن يزدني بيانا... ولم يربني مسلكه... فقد ألفته منه في مناسبات شتى!

ولاحظت من جهة أخرى أن فوزية أكثر صمتا، وأقل ابتساما، منها في الليالي الماضية الأخيرة، فربطت بين ذلك وبين ما قاله لي فاروق وقلت ربما بلغها أن ابنتها منحرفة الصحة فأزعجها النبأ... ولم أعلق أهمية خاصة على مظهرها في تلك الليلة!

وفي طريق العودة إلى الفندق، بعد انتهاء السهرة، جعلت أفكر فيما سمعت، وفيما رأيت.

وفجأة عرض لي أن وجوه فاروق وفوزية وفائزة وبعض الآخرين كانت وجوه أناس يخفون خبرا مهما... أفلا يحتمل أن يكون الخبر متعلقا بشيء أخطر من انحراف صحة الأميرة الصغيرة؟؟

وكأنما وددت أن أريح ذهني وأنا مقبل على النوم فقلت لنفسي: لو كان هناك نبأ خطير فعلا لما كتمه فاروق عني وأخفاه عليّ... وعلى كل حال سوف أعرف غدا لماذا طلب مني فاروق الليلة ألا أتكلم مع الإمبراطورة عن ابنتها!

وفي الصباح، وقبل أن أغادر حجرتي، اتصلت بي عاملة التليفون بالفندق قائلة إن (ي.ي) يرغب في مقابلتي لأمر مهم، فدعوته إلى موافاتي في «الصالون» الخاص بالملحق بحجرة نومي.

الفصــل الخامس

اختطاف الإمبراطورة

كان «ي . ي» ضابط بوليس على جانب كبير من الذكاء والنشاط ، وكان بحكم منصبه وعمله مطلعا اطلاعا واسعا على أحوال البلاد الداخلية ، وقد اعتاد أن يتردد عليّ بين الفينة والفينة فأجد في جعبته من الأخبار والمعلومات السياسية ما لا يرد ذكره في التقارير الرسمية ، فكان من الطبيعي ألاّ أرى في زيارته لي في تلك الساعة ما يوجب التساؤل والدهشة وخاصة أنني كنت أسر بزيارته في كل وقت . . . أما في صباح ذلك اليوم فتمنيت لو جاء في يوم آخر فلا يؤخرني حديثه عن الذهاب إلى القصر ، وكنت أنوي أن أمضي إليه رأسا لعلي أتنسم من الأخبار ما يعوضني عما لم يتيسر لي تسقطه من فاروق في الليلة السابقة ، ويكشف لي عن بعض ما أغلق عليّ .

ودخل عليّ « ي . ي » وعلى وجهه شحوب القلق ، وفي عينيه نظرة الحيرة والاستغراب .

وبعد التحية قال لي بصوت خافت مضطرب : هل بلغك حكاية الإمبراطورة؟

فقلت واجما : ماذا حدث لها؟

فقال مرتبكا : خطفها جلالة الملك!

فقلت مشدوها : خطفها؟؟ . . . كيف خطفها؟

فقال : علمت أنه لما استيقظ رجال الحاشية الإيرانية في هذا الصباح لم يجدوا في قصر أنطونيادس أحدا ، ولم يجدوا للإمبراطورة أثرا ، فأسرعت لإبلاغك الخبر لربما لم يبلغك بعد ، ويظهر أن ظني كان في محله .

فقلت وقد أذهلني ما سمعت : أشكرك جدا ، والواقع أنني لم أخبر به إلاّ منك . . . ولكن من قال لك إن الملك خطف الإمبراطورة؟

فقال: ضابط من ضباط البوليس المكلفين بحراسة قصر أنطونيادس، وهو على اتصال وثيق ببعض خدم الملك.

فقلت: وماذا قيل للحاشية الإيرانية؟

فقال: كل ما أعرفه حتى الآن هو أنه استيقظ رجال الحاشية الإيرانية ففوجئوا بعدم وجود أحد في القصر.

فقلت: ماذا تعني بعدم وجود أحد في القصر؟

فقال: لم يكن هناك موظف واحد أو خادم في جميع أرجاء القصر... أما التفاصيل فلم أعرفها بعد... وقد سمعت أنهم ذهبوا إلى قصر «رأس التين» ليقابلوا كبار رجاله ويسألوهم عن سر هذه المفاجأة!

فقلت: وأين الإمبراطورة الآن؟

فقال: في قصر «المنتزه».

ثم سألني بماذا أفسر هذه «الحكاية العجيبة».

فأجبته بأنه لابد لي من معرفة التفاصيل أولا!

فقال: ألا يحتمل أن تكون هناك رغبة في الطلاق؟

فقلت: كل شيء محتمل... وسأذهب الآن إلى قصر «رأس التين» فإذا تسربت إليك معلومات جديدة فأرجو أن تحيطني بها في مكتبي فورا!

وأخذت طريقي إلى «رأس التين» مغموما مهموما، وقد وضح لي الاتجاه الذي اتجهه «تفكير الرجل الآخر» في فاروق.

وعندئذ أدركت أن تفاؤلي كان في غير محله، وأنني كنت على خطإ مبين! على نحو ما ذكرت قبلا.

ولما بلغت قصر «رأس التين» علمت أن أعضاء الحاشية الإيرانية انصرفوا منه قبل وصولي إليه بدقائق، وأن أحدهم سأل عني فقيل له إنني لم أحضر إلى مكتبي وإن حضوري إليه غير مقيد بموعد معين، فلم ينتظرني وانصرف مع زملائه... فحمدت الله على تأخيري!

وطفت بمن قابلوا من كبار رجال القصر، ووقفت منهم على ما أفضوا به إليهم،

فاجتمعت لديّ معلومات وبيانات كثيرة، ولما ضممت بعضها إلى بعض، ورتبتها، تألفت منها قصة نادرة ليس في تاريخ القصور الملكية ما يماثلها!

بل قلما شاهدنا في أعجب الأفلام السينمائية ما يضارعها!

وهذه هي القصة:

كان رجال الحاشية الإيرانية يقيمون في الجناح الذي أفرد لهم في قصر أنطونيادس منذ قدومهم إلى الإسكندرية، ولما عادوا إلى القصر ليلة اختفاء الإمبراطورة لم يستوقف نظرهم أي حركة غير اعتيادية، فقد كان كل شيء تحت سقف الدار يسير طبقا للنظام الذي ألفوه، سواء كان ذلك من حيث ترتيب المائدة وألوان الطعام وانتظام الخدمة، أو من حيث نظام الحراسة العسكرية والمراقبة السرية، فناموا مطمئنين.

ولما استيقظ أولهم في الصباح، ودق الجرس كعادته، ولم يبادر الخادم إلى تلبية ندائه، دقه مرة أخرى، وانتظر قليلا، فلم يأت إليه أحد، فظن أن في الجرس خللا وأن نداءه لا يبلغ سمع من يستدعي، فخرج من حجرته ليكلف أول حاجب يلتقي به أن يوفد إليه الخادم المخصص لخدمة غرفته، فلم يصادف في طريقه أحداً، فاستغرب أن يتأخر خدم القصر هذا التأخير غير المألوف، ولم يزل يجد في البحث عنهم حتى وصل إلى «الأوفيس» حيث يجتمعون عادة، فلم يعثر على أحد منهم، فعاد أدراجه وهو يتساءل عما طرأ عليهم اليوم فحال دون مواظبتهم على مواعيد عملهم.

وكان زملاؤه قد استيقظوا في تلك الأثناء، ودقوا الأجراس تباعا، وجلسوا ينتظرون قهوة الصباح التقليدية، فأعلمهم بما اتفق له، فاختلفت آراؤهم في تعليل هذا التأخير ثم اتفقوا على الانتظار فترة أخرى قبل أن يستفسروا عن علته من الضابط المشرف على نظام الحراسة في القصر.

وفي خلال تلك الفترة اتجه أحدهم إلى نافذة حجرته عفوا، وعن غير قصد، وأخذ يسرح الطرف في أرجاء حديقة القصر، وسرعان ما نادى زملاءه وقال لهم وهو يشير إلى الحديقة: «لقد استرعى انتباهي الآن أمر غريب... انظروا إلى الحديقة جيدا... ليس في جوانبها جندي واحد من الجنود الذين كنا نراهم فيها... أليس هذا أمرًا غريبا؟!

فقال الآخرون : لا خدم . . . ولا حرس . . . ترى ماذا حدث؟

وبدلا من أن يضيعوا الوقت في الانتظار والتساؤل أسرعوا إلى ارتداء ملابسهم ليقابلوا ضابط القصر أو من يقوم مقامه.

وبينما كانوا مشغولين بملبسهم خطر لأحدهم أن يمد بصره إلى «سارية» القصر من شرفة قريبة من حجرة نومه، فإذا العلم الإمبراطوري لا يرفرف في أعلاها، فخفق قلبه قلقا، وخف إلى إخوانه وأنبأهم بالأمر، فشاطروه جزعه، ولم يكن لإنزال العلم الإمبراطوري سوى معني واحد وهو أن الإمبراطورة «لا تقيم» في القصر!

ومن المرجح أنه لولا الظواهر غير العادية التي استرعت انتباههم منذ استيقاظهم لما أذعرهم احتجاب العلم قبل أن يستطلعوا سر احتجابه . . . أما وقد اكتشفوا اختفاءه بعد اكتشاف اختفاء الخدم، واختفاء الحرس، كان من الطبيعي أن يربطوا بين تلك الظواهر جميعا وأن يلوح لهم أن في الجو شيئا!!

وهرولوا إلى بهو القصر فلم يجدوا فيه مخلوقا، وكذلك لم يلقوا أحدا في الردهات والصالونات ولما دخلوا قاعة الأكل لم يلمحوا على المائدة، أو بجوار المائدة، أثرا لطعام ما . . . ولما قنطوا من العثور على أحد من خدم الدار أسرعوا إلى حيث كان رؤساء الحرس يجلسون فوجدوا المكان خاليا من الرؤساء والمرءوسين، سواء كانوا من رجال الحرس أو من رجال البوليس . . . وأخيرا صادفوا «مخبرا» (بوليسا سريا) فانهالوا عليه بالأسئلة فقال لهم إنه لا يعرف أكثر من أن القصر قد هجر ولم يبق فيه أحد!

وبعدما تشاوروا في الأمر قرروا أن يطرقوا الجناح الخاص بالإمبراطورة لعل خادمتها قد تخلفت عنها لتتولى إعداد حقائبها، فتفيدهم بما عندها من أخبارها . . . فلما بلغوه لم يطرقوا بابا . . . فقد كانت الأبواب جميعا غير موصدة . . . والحجر خاوية إلاّ من أثاثها . . . ولا أثر فيها للخادمة طبعًا !

ولما فتحوا الخزائن (الدواليب) في غرف الإمبراطورة اتضح لهم أن جلالتها قد أخذت معها كل ملابسها وحاجاتها، ولم تخلف وراءها حقيبة واحدة، فأدركوا أنها رحلت عن قصر أنطونيادس نهائيا!

وبينما كانوا يتباحثون في موقفهم أقبل عليهم ضابط من ضباط البوليس

الملحقين بالقصر، وأنهى إليهم، في أدب وكياسة، ما يفهم منه أن قصر أنطونيادس بعد «سحب طهاته وخدمه وحجابه لم يعد في حالة تتوافر فيها أسباب الضيافة اللائقة بهم»!

ثم قال لهم إن التعليمات صدرت إليه بأن يضع نفسه تحت تصرفهم متى أرادوا أن ينقلوا حقائبهم وأمتعتهم إلى مكان آخر! . . . فزادهم هذا الكلام حيرة ودهشة ولما حاولوا أن يرووا غليلهم بسؤاله عن بعض ما خفي عليهم أجابهم بأنه لايعرف شيئا، فقرروا عندئذ أن يتوجهوا إلى قصر رأس التين.

تلك هي قصة ما حدث في قصر أنطونيادس!

وفي قصر رأس التين دارت أسئلة رجال الحاشية الإيرانية حول:

لماذا رحلت الإمبراطورة عن قصر أنطونيادس، ولماذا لم يكاشفهم أحد بعزمها على الارتحال عنه؟

وإلى أين ذهبت؟ ولماذا لم يخبروا بذلك، ولو على سبيل الإحاطة؟

ولماذا تم هذا كله سرا ومن غير أن يتصل بهم أحد من البلاط المصري؟

وكيف عدل برنامج الإقامة بهذه الكيفية من غير استئذان البلاط الإمبراطوري في تعديله؟

وماذا سيكون رأي جلالة الشاه في ذلك؟

ثم قالوا إنهم لا يدرون كيف يفسرون المعاملة التي عوملوا بها على حين غفلة، ولايرون لماذا يفاجئون بسحب الخدم والحجاب من قصر أنطونيادس إلاّ إذا كانت هناك رغبة في أن يخلوا القصر وفي هذه الحالة كان من المتيسر للجانب المصري أن يفهمهم ذلك بالحسنى صونا لكرامة الفريقين، أما «طردهم» على تلك الصورة المزرية «فأمر من المحقق أن جلالة الملك فاروق لن يقره ولن يرضى عنه!».

وكان آخر سؤال لهم : والآن ماذا يمكننا أن نقول لجلالة الشاه في تفسير هذا كله؟!

وفي كل مكتب دخلوه لقوا مجاملة، وعناية، وإصغاء إلى حديثهم وأسئلتهم.

وفي كل مكتب كانت علامات الدهشة، والحيرة، والارتبارك، ترتسم على وجه صاحبه.

ولكن في كل مكتب ظل حديثهم بدون تعقيب، وظلت أسئلتهم بدون ردود!

ولم يظفروا إلاّ بجواب واحد: إنا لانعلم عن هذا كله شيئا، ونؤكد لكم أن حديثكم هذا هو أول ما سمعنا عن هذا الموضوع . . . وسنرفعه حالا إلى جلالة الملك لمعرفة أوامره وتوجيهاته وإن شاء الله ينتهي كل شيء بخير!

والواقع أن كبار رجال القصر كانوا صادقين حين قالوا إنهم لا يعلمون عن الموضوع شيئا، فقد كتمه فاروق عنهم جميعا كتمانه عني، ومع أنه توقع حتما أن يهرع رجال الحاشية الإيرانية إلى قصر رأس التين في طلب بيانات وإيضاحات لم يهتم بتزويد رجاله بالتعليمات التي تعينهم على مواجهة الموقف المؤلم الذي وقفوه عند زيارة «الضيوف» الإيرانيين لهم!

وكان فاروق شديد الاستخفاف ببعض المواقف الحرجة التي يقفها رجاله لأجله أو بسببه، وكثيرا ما لاح لي أنه يغتبط بالحرج الذي يسببه لهم ويفرح بسماع قصص المآزق التي يزجهم فيها، وإن كان من الإنصاف له أن أنوه بأنه لم يجد من كبار رجال القصر في يوم من الأيام ما يبعثه على عدم الاسترسال في استهتاره بهم!

وما كاد أعضاء الحاشية الإيرانية يودعون كبار رجال القصر حتى ردّ هؤلاء على أنفسهم الأبواب واتصلوا تليفونيا «بالشمشرجي» النوبتجي في قصر المنتزه وأبلغوه أحاديث الحاشية الإيرانية وأسئلتها «ليعرضها على مولانا ويتلقى تعليماته في صددها».

وانقضت ساعات العمل في مكاتب القصر، وتوجيهات فاروق وأوامره لم تعرف بعد، فعاود بعضهم الاتصال «بالشمشرجي النوبتجي» واستعلم منه هل تسنى له عرض الموضوع؟ فأجاب بالإيجاب، فسألوا: «وما هي الأوامر والتوجيهات؟ فرد عليهم« بأن مولانا لم يقل شيئا»!

فقالوا له: ولكن ألم تذكر لمولانا أننا في انتظار توجيهات؟

فقال: طبعا ذكرت ذلك.

فقالوا: وماذا كان رده؟

فقال: لم يقل شيئا!

ولما قرب موعد قفل المكاتب أسرع كبار رجال القصر إلى سياراتهم، وعجلوا

انصرافهم، حامدين الله على عدم اتصال «الضيوف» الإيرانيين بهم مرة أخرى في هذا اليوم. . . آملين أن يتلقوا «التوجيهات السامية» قبل حلول مواعيد الزيارات في الغد!

وأثرت من جهتي ألا «أحاول الاتصال بفاروق في هذا الشأن لثلاثة اعتبارات: أولها «نظري» وثانيها «عملي» وثالثها «واقعي».

أما نظريا، فلأنه لم يكن لي «دور» في هذا الموضوع، وبخاصة أنه لم يدر بين رجال الحاشية الإيرانية وبيني أي حديث يمكنني أن أتذرع به لأطلب مقابلة الملك.

وأما عمليا فخشية أن يظن فاروق أنني على أحر من جمر لاستطلاع ما يدبره في الخفاء، فيحرك هذا الظن بعض نزواته فتحضه على تأجيل مقابلتي ليطيل حيرتي وقلقي. . . وكان يسره في أحوال كثيرة أن يشعر أنه وفق إلى إطالة هذا «الأمد» وأن الشخص الآخر «على نار»!

وأما واقعيا فلثقتي بأنه سيستدعيني من تلقاء نفسه. . . «في الظاهر» ليقف مني على وقع الخبر في نفوس الذين عرفوه، «وفي الحقيقة» ليتباهى بالخطة التي نفذها ولم يُعلِمْ أحدا بها إلاّ بعد تنفيذها!

وتحقق ما توقعته. . . ففي نحو الساعة السادسة مساء كلمني «الشمشرجي النوبتجي» ودعاني إلى مقابلة الملك في قصر المنتزه.

وفي بهو الفندق التقيت بالضابط «ي. ي» وكان قادما لزيارتي، فانتحيت به ناحية وسألته عن الجديد في الأخبار، فقال: إن حادث خطف الإمبراطورة هيّج دوائر السفارة الإيرانية هياجا شديدا وهي تحيطه بالكتمان التام، ولا تريد أن يشاع شيء عن المعاملة التي عومل بها أعضاء الحاشية الإيرانية اليوم صباحا، ريثما تتلقى تعليمات من طهران بالخطة التي يجب عليها انتهاجها.

فقلت: ترى ما تفسيرها لما حدث؟

فقال: هذا ما جئت لأجله. . . إن الآراء فيها متفقة على أن خطف الإمبراطورة مقدمة لطلب تطليقها من الشاه، ويقول رجالها إن الطريقة التي رحلت بها الإمبراطورة عن قصر أنطونيادس والكيفية التي عومل بها أعضاء الحاشية الإيرانية لاتدعان مجالا للشك في ذلك.

فقلت : هل استقيت هذه المعلومات من مصدر يعول عليه؟

فقال : استقيتها من مصدر إيراني أعتمد على صدق روايته ، وأعرف صلته بالدوائر الإيرانية الرسمية .

فقلت : هل تظن أن أخبار حادث الإمبراطورة وملابساته بلغت سمع رئيس الوزراء؟

فقال : بلغت حتما !

وأدركت من لهجة رده أنه لم يستعمل كلمة «حتما» عبثا فاكتفيت بهذا القدر !

وفي الطريق إلى «المنتزه» قلت لنفسي : من حسن الحظ أن رئيس الوزراء علم بهذه الأخبار فإن الموقف أخطر من أن تنفض الوزارة أيديها منها ، وهو إذا لم يعالج بسرعة وحكمة ولباقة فسينتهي لا محالة إلى نتيجة غير محمودة العاقبة من نواح شتى .

ثم سألت نفسي : هل تتحرك الوزارة ، فتصارح الملك بأن هذه مسألة لا يجوز أن ينفرد بالرأي فيها لما لها من تأثير على علاقات مصر الخارجية وفي سمعتها الدولية . . . أم تعدها «مسألة عائلية» لا شأن لها بها فتتجاهلها وتتشاغل عنها لتجنب نفسها الاستهداف لغضب جلالته واستيائه؟ !

وفي تلك اللحظة وقع نظري على إعلان كبير من الإعلانات المصورة والملونة التي تلصق عادة على الحواجز المحيطة بالمباني الجديدة التي لم يتم بناؤها بعد .

وكان على هذا الإعلان صورة . . . وكانت الصورة تمثل القرود الثلاثة المشهورة .

وقد وضع أحدها يديه على عينيه ولسان حاله ، يقول : لا أريد أن أرى !

ووضع الثاني يديه على أذنيه : لا أريد أن أسمع !

ووضع الثالث يديه على فمه : لا أريد أن أتكلم!

ولما شاهدت هذه الصورة لم أتفاءل بمنظرها خيرا .

لا لأنني كنت أعرف القرود .

بل لأنني كنت أعرف الوزارات وموقفها من فاروق ! !

الفصــل السادس

فاروق الذي أعرفه
وفاروق الذي لا أعرفه

لما دخلت على فاروق قال لي مازحا ومتهكما : أهلا بالصحفي الكبير!

وكان ذلك بمعنى : أهلا بالصحفي الكبير الذي كان في غفلة!

فحييته تحية لا كلام فيها ولا ابتسام، وكان يعلم أن هذه طريقتي في لقائه حينما أكون مستاء من تصرف تصرفه، وعازما على مفاتحته في موضوعه.

ولما لم أتكلم غيّر ملامح وجهه وأبدل لهجته، وقال بالعربية: لابد أنك عرفت ما حدث .

ثم استطرد قائلا بالفرنسية : لقد عملت ما كان يجب عليّ عمله لإنقاذ شقيقتي!

وذكرني حاله في تلك الساعة بأولئك الذين يقتلون زوجاتهم أو شقيقاتهم ثم يذهب القاتل إلى البوليس ويسلم نفسه وهو يقول: «لقد قتلتها! . . . وليكن الآن ما يكون! . . .».

ولم يقل فاروق: لقد قتلتها! . . وإنما قال: لقد عملتها . . وليكن الآن ما يكون!

وتأملت مظهره ولهجته. . . فليس هذا مظهر الرجل «الذي أعرفه» في فاروق، وليست هذه لهجته.

بل هذا مظهر ولهجة «الرجل الآخر» في فاروق. . . الرجل الذي «لا أعرفه». . . ولن أعرفه!

ونظر إليّ نظرة من ينتظر مني تعقيبا على قوله، فقلت : هل كان حدوث ما حدث ضروريا؟

فصاح قائلاً : حتما كان ضروريا . . . إن شقيقتي كانت مهددة في صحتها وفي عقلها وفي سلامتها وبعد ذلك تسألني هل ما عملته كان ضروريا!

فقلت : كنت أعتقد أننا اقتنعنا بأنها على أحسن حال، وإن ما جاء في التقارير السرية غير صحيح!

فقال: أنت اقتنعت بذلك. . . أما أنا فلم أقتنع . . . ويحسن أن تعلم أن تلك التقارير كانت صحيحة بوجه عام!

فقلت : من الغريب أن جميع المتصلين بالإمبراطورة لم يلاحظوا عليها شيئا مما أكدته التقارير المذكورة!

فقال: لأن فوزية تضغط على أعصابها ولا تدع شيئا يظهر على وجهها!

فقلت : ولكن التقارير ذكرت أشياء لا يتيسر إخفاؤها مهما اجتهدت الإمبراطورة في ذلك.

ولما تبين له أنني مصمم على مناقشته ومحاجته خشى أن أضيّق عليه بأسئلتي وحججي فقال: أنت تعلم أنني أحبك وأثق بك. . . ولكن فوزية انتزعت مني قسما بألا أبوح لأحد بما ستكاشفني به. . . ولما اطمأنت إلى ذلك، فتحت قلبها لشقيق يحبها ويخلص لها!

وكان معنى كلامه: أن هناك أسرارا لا يجوز لك أن تعرفها. . . ولو عرفتها لعذرت عملي!

ولم أصدق طبعا!

وقلت في نفسي: لو كانت هناك حقيقة أسرار كما يزعم لما تردد دقيقة واحدة في إطلاعي عليها تعزيزا لموقفه وتبريرا لمسلكه. . . وليس الرجل الذي لم يحبس عني قبلا أسرار علاقاته بزوجته هو الذي يحرص هذا الحرص الشديد على أسرار شقيقته!

ولما لم أستطع أن أقول له إنني لا أصدقه تركت تلك «النقطة» وانتقلت إلى نقطة أخرى، فقلت : إذن الإمبراطورة عازمة على طلب الطلاق.

فقال: ألم تفهم ذلك بعد؟

فقلت : فهمته منذ هذا الصباح يا أفندم وإنما أردت أن أستوثق .

فقال : هل استوثقت الآن؟ . . . نعم يا سيدي سنطلب الطلاق!

فقلت : ما دامت النية منصرفة إلى الطلاق فلماذا تركت الإمبراطورة قصر أنطونيادس سرا ؟ ولماذا نقلت حقائبها وأمتعتها في الخفاء؟

فقال : لأنها لم تعد تطيق «أي جو» يذكرها بحياتها في طهران!

وهنا أيضا لم أصدقه .

فقلت : ولكن لماذا تمّ ذلك سرا وفي الخفاء ، فيقال إن الملك خطف الإمبراطورة؟!

فقال : لأني أردت أن أتفادى عقبات كان من المحتمل أن يثيرها رجال الحاشية الإيرانية!

وأردت أن أفهمه أنني لا أصدق حديثه ، فقلت : وهل كانوا يستطيعون منعها من الانتقال إلى قصر «المنتزه» لو قالت لهم إنها تبغى الانتقال إليه؟

فلم يرد على هذا السؤال ، وقال : أحببت أن أواجههم بالأمر الواقع ليعلموا أننا جادون في حركتنا!

فقلت : وحكاية تركهم بدون خدم وحجاب . . . ماذا كان الغرض منها؟

فقال : لا شيء . . . ولكن بما أن فوزية تركت المكان لم يبق ما يدعو إلى استمرار إقامتهم فيه!

فقلت : أكانت المعاملة التي عوملوا بها السبيل الوحيد إلى إفهامهم ذلك؟

فقال : آه . . . الآن فهمت سؤالك . . . لا أخفى عليك أنني تعمدت المبالغة في استفزازهم ليعجلوا الطلاق!

فقلت : كل هذه الأمور أثارت هياجا شديدا في دوائرهم .

فقال بالفرنسية : ليذهبوا إلى الشيطان! . . . إن سلامة شقيقتي وسعادتها مقدمتان عندي على كل اعتبار آخر ، وهما الشيء الوحيد الذي أحسب حسابه الآن . . . إن شقيقاتي أمانة في عنقي ما دمن محرومات من الوالدين . . . و أنت تعلم أنني أعد والدتي في حكم غير الموجودة . . . فليس لشقيقاتي «ملجأ» غير عندي!

ولم تمنعني ملاحقة أقواله من الانتباه لكلمة تكلف تكرارها في هذه المناسبة، وهي كلمة «شقيقتي».

وعجبت لضربه على هذا الوتر مع علمه بأنني لا أجهل «مبلغ» حبه الحقيقي لشقيقاته و«مدى» استعداده الفعلي للبذل في سبيلهن!

ولم يكن فاروق رجلا يعوزه ذكاء أو تنقصه فطنة.

ولكن «الرجل الآخر» في شخصه كان يسدل على ذكائه وفطنته ستارا من الشهوات والنزوات، ويوقف نشاطهما، كلما شاءت المقادير أن يسيطر على إرادته، وأن يسلبه مشيئته!

ولما ظهر له أن حديثه عن سلامة شقيقته وسعادتها، وعن الأمانة التي في عنقه، وعن الملجأ الذي هو ملاذ شقيقاته، لما ظهر له أن هذا الحديث لم يغير شيئا من وقع أقواله في نفسي، قال: وعلى كل حال فإن هياجهم سيزيد كثيرا عندما يعلمون أن شقيقتي ستطلب الطلاق!

فقلت: إنهم يعلمون ذلك يا أفندم... أو بالحرى إنهم يتوقعون!

ورددت له ما سمعته من الضابط «ي. ي» فعلق عليه بقوله: الحمد لله... إنهم يسهلون لي مهمتي!

ثم سألني هل ترامى إليّ شيء من أحاديث رجال الحاشية الإيرانية في قصر «رأس التين» فقلت له إنني عرفتها برمتها، فضحك وقال: كلما تصورت كيف كانت وجوههم لما استيقظوا هذا الصباح ووجدوا قصر أنطونيادس مهجورا، أكاد أموت من الضحك... وكم وددت لو أتيح لي أن أراهم في تلك الساعة من خلال أحد الأبواب أو من خلف إحدى الستائر!

وأردت أن أشعره بأن الموضوع أخطر من أن يقابله بهذا الاستخفاف، فقلت: هل فكرت جلالتك فيما سيكون لهذا الحادث من تأثير في علاقات مصر بإيران؟

فقال وهو يهز كتفيه ازدراء: وما أهمية علاقاتنا بإيران؟ ولماذا تتأثر علاقتنا بها إذا حدث طلاق؟ هل هو أول طلاق من نوعه في التاريخ؟ومع ذلك إن علاقاتنا بإيران لاتهمنا!

وكنت أعلم أن الرجل «الذي أعرفه» في فاروق لا يشرب ولا يسكر.

أما «الرجل الآخر» الذي كان يكلمني في هذه المقابلة فكان يتكلم كأنه تحت تأثير سكرة... ولكنها لم تكن سكرة الخمر.

كانت سكرة الاقتدار!... أو على الأصح: توهم الاقتدار!

وإذا هو يقول فجأة: دعنا الآن من العلاقات الرسمية بإيران... ألا ترى أن خطة هجر قصر أنطونيادس قد نفذت بمهارة وبراعة... بدأت أولا بدعوة فوزية إلى العشاء معي كما تعلم، ولم يكن في ذلك ما يريب رجال الحاشية الإيرانية لأنها اعتادت أن تتعشى في ضيافتي كل ليلة تقريبا... وفي تلك الأثناء كان كل شيء في قصر أنطونيادس يسير في الظاهر سيرا عاديا منتظما، فلم يكن في استطاعة رجال الحاشية الإيرانية أن يلاحظوا شيئا يسترعي انتباههم أو يحرك ظنونهم... ولما انتهوا من عشائهم وسهرتهم وانتقلوا إلى حجرهم شرع رجالي في تنفيذ أوامري وتعليماتي بحذر واحتراس اتقاء لكل جلبة أو حركة تنبه الضيوف إلى أن هناك شيئا يجري تحت جنح الظلام... وكانت فوزية قد جمعت ملابسها وأعدت حقائبها بمساعدة خادمتها فأنزلها الخدم من الباب الخلفي إلى السيارة التي كانت في انتظارها إلى هنا... وكان «السفرجية» قد اشتغلوا بعد العشاء بجمع كل ما كان في قصر أنطونيادس من مأكل وشراب فلما هدأت الحركة في القصر نقلوا صناديقهم بخفة وسرعة إلى سيارة كبيرة وضعت تحت تصرفهم لهذا الغرض... ثم ركب جميع الطهاة والخدم والحجاب السيارات التي أعدت لهم وكانت تنتظرهم في مكان لا يصل منه صوت محركاتها إلى حجرة رجال الحاشية الإيرانية... وكان هؤلاء على كل حال يعلمون أن هناك سيارات تجيء وتذهب في كل وقت لنقل لوازم الضيافة والخدم المعينين لخدمتهم، وإنما اتخذنا هذا الاحتياط كيلا يلاحظوا أن حركة السيارات في هذه الليلة زادت على الحركة المعتادة... وبعدما انصرف الخدم والحجاب جاء دور رجال الحرس فاحتشدوا جميعا في جهة واحدة واستقلوا السيارات الكبيرة التي أقلتهم إلى ثكناتهم ولم يتركوا أمام باب القصر سوى رجل واحد من رجال البوليس «ومخبر» لا يعرفان أكثر من أن الأوامر قد صدرت بإخلاء القصر... ونفذت الخطة بإحكام فلم تقع غلطة واحدة، وأخلي القصر في أقصر

وقت مستطاع وكان حضرات الضيوف غارقين في نوم عميق لا يدرون شيئا عن المفاجأة السارة التي ستنزل عليهم كالصاعقة عند استيقاظهم . . . ولعلك أدركت أن فوزية لم تعد بعد العشاء إلى قصر أنطونيادس فنامت في الجناح الذي أفردناه لها هنا . . . أما بقية القصة فقد عرفتها من أحاديث رجال الحاشية الإيرانية!

وكان «الرجل الآخر» في فاروق يتكلم عن «خطة» إخلاء قصر أنطونيادس كأنها الخطة التي اختطف بها هتلر حليفه موسوليني من المعتقل الذي اعتقله فيه الملك فكتور عمانوئيل الثالث في أواخر الحرب العظمى الماضية، ويغرق في الضحك كلما ذكر المفاجأة «السارة» التي فوجىء بها رجال الحاشية الإيرانية في الصباح، حتى كاد يخيل إليّ أنه لم يفكر في هذه الخطة ولم ينفذها إلاّ ليبعث في نفوسهم الحيرة والقلق والارتباك فيضحك لذلك!

ولما استتم وصف «خطته» حاولت مرة أخرى أن أشعره بجدية الموقف، فقلت : ترى ماذا سيكون رأي الحكومة؟

فقال على الفور محتدا : وما علاقة الحكومة به؟ ما شأن الحكومة ومسائلنا العائلية ؟!

فقلت : ألا ترى جلالتك أن للموضوع ناحية سياسية من الواجب على رئيس الحكومة أن يهتم بها ؟

فقال : إني أشفق من الآن على رئيس الوزارة مما سيسمعه مني في اليوم الذي يتجاسر ويكلمني في موضوع لا يعنيه!

وبعدما أطرق لحظة قال : لا أتصور أن رئيس الوزارة «يفقد عقله» ويقدم على ما ذكرت . . . . لا . لا أعتقد ذلك . . . فقد «علّمت» رؤساء الوزارات منذ ارتقائي العرش أن يكونوا شديدي الاحتراس في علاقاتهم بي وألا يتدخلوا في شئون لا تعنيهم وليس لهم أن يتدخلوا فيها !

فقلت : ولنفرض أن رئيس الوزارة قدّر أنه بالتكلم مع جلالتك يؤدي فرضا عليه .

فقال ضاحكا : الحل سهل جدا . . . ألحقه بالحاشية الإيرانية!

وهكذا كان يلف ويدور ثم يعود إلى ذكر الحاشية الإيرانية !

وهنا سألته هل أبلغ المختصين في « رأس التين» توجيهاته بشأن ما يقولونه لرجالها .

فقال: ليس عندي كلام لهم. . إن سفير مصر في طهران هو الذي سيتصل بالشاه في هذا الموضوع!

فقلت: وهم. . . ماذا يصنعون؟

فقال: لم يعد أمرهم يهمني سواء بقوا في مصر أو غادروها عائدين إلى بلادهم مادامت فوزية لن تقابلهم بعد الآن. . . وما داموا ليسو ضيوفا علينا من اليوم!

فقلت: وإذا أحب السفير الإيراني مقابلة الإمبراطورة؟

فقال: إن الإمبراطورة في حالة لا تمكنها من مقابلته. . . وقد فوضت إليّ أمرها!

ثم قال مستدركا: ولكن هذا لا يعني أن نخرج عن حدود آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة، فإن إنهاء العلاقة الزوجية بين فوزية والشاه مسألة شخصية وعائلية ويجب ألاّ تؤثر في العلاقات العامة والرسمية!

وتساءلت وأنا أسمع هذا الكلام أي الرجلين في فاروق هو الذي يتكلم الآن؟!

فأين كانت آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة حين فكر في خطة اختطاف الإمبراطورة وإخلاء قصر أنطونيادس؟!

وأين كانت آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتاده حين استيقظ رجال الحاشية الإيرانية وواجهوا تلك المعاملة المشينة الشاذة؟!

وأدرك فاروق معنى الابتسامة التي قابلت بها كلامه فقال: أنا فاهم مغزى ابتسامتك. . . فأنت لا ترى كيف يستقيم ما سمعته مني الآن مع الذي حدث. . . فأكرر لك أن الضرورة هي التي حتمت عليّ العمل الذي عملته، ولولا ذلك لما لجأت إلى الخطة العنيفة التي نفذتها. . . أما التزام حدود آداب المعاملة والتقاليد والمجاملات فيبدأ من الآن.

فقلت: وإذا طلب الآن أحد رجال الحاشية الإيرانية أن يقابلني؟

فقاطعني قائلا: تقابله طبعا بكل أدب وإكرام!

فقلت وإذا كلمني في الموضوع فماذا أقول له؟

فقال: قل إنك لا تعرف شيئا. . . ثم تظاهر له بأنه استدرجك في الكلام ودعه

يفهم أن الإمبراطورة ستطلب الطلاق وأنك لا تظن أنها سترجع عن قرارها . . . لا تقل له إنك «تعلم» ذلك بل قل إنك «تظن» . . . أي أن هذا هو رأيك الشخصي لأنك لم تكلمني في الموضوع بعد!

فقلت : ولكن عندما سأقول «لا أظن أنها سترجع عن قرارها» سيفهم أن هناك قرارا ، وأنني على علم به !

فقال : لا ضرر من أن يفهم ذلك . . . وفي الوقت نفسه دعه يفهم أن سفير مصر في طهران هو الذي سيتولى مهمة الاتصال بالشاه ، وأنه لذلك ليس لدى رجالي هنا أي توجيهات في هذا الصدد !

وانقضت الأيام التالية من غير أن يطلب أحد من رجال الحاشية الإيرانية مقابلتي . . . فحمدت الله على ذلك . . . لأنه ليس أبغض إليّ من أن أواجه رجلا قوي الحجة بحجة أشعر مقدما بأنها واهية وخاسرة !

وأخذت أراقب موقف الوزارة .

وفي كل يوم كنت أسأل : هل تحرك رئيس الوزارة؟ . . . فيقال لي : لا!

وبعد أسبوع كان الرد على السؤال نفسه : لا !

وبعد أسبوعين ، وثلاثة أسابيع ، وأربعة أسابيع ، كان الرد دائما : لا !

وتمّ الطلاق بين الشاه وفوزية ورئيس الوزارة لا يزال يشاور عقله : هل يكلم فاروق أم لا يكلمه ؟!

ألم يقل لي فاروق : لقد «علّمت » رؤساء الوزارات!!

أبرزت قصة طلاق فوزية بجلاء أنه كان في فاروق شخصيتان أو رجلان ، أولهما الرجل الذي قلت عنه في الفصول السابقة إنني كنت أعرفه ، والثاني هو «الرجل الآخر» الذي كنت لا أعرفه ولم أعرفه قط!

وتسهيلا لي في الكتابة ، وتمكينا للقارئ من تتبع حديثي بسهولة ، سأشير من الآن برقم ١ إلى الرجل الذي كنت أعرفه ، وسأرمز برقم ٢ إلى «الرجل الآخر» الذي كنت لا أعرفه ولم أعرفه قط .

فلا ريب أنه لما تلقى فاروق من طهران التقارير السرية الخاصة بفوزية كان الرجل رقم ١ هو الذي اطلع عليها .

وكان الرجل رقم ١ هو الذي قلق لما جاء فيها من معلومات مفزعة خطيرة .

ولما رحب فاروق بفكرة سفر فائزة إلى طهران كان الرجل رقم ١ هو الذي رحب بالفكرة، ولما عدل عنها كان الرجل رقم ١ هو الذي عدل .

ولما صدق فاروق أن فوزية تعيش في جحيم، وأنها قد تقدم على عمل في إقدامها عليه فضيحة عالمية، وأنها أصيبت بما يهدد قواها العقلية من أقوال لما صدق فاروق هذا كله صدقه عن اقتناع بصحته، فكان الرجل رقم ١ هو الذي صدّق .

ولما قرر فاروق دعوة فوزية إلى زيارة شقيقتها ليخبر أحوالها بنفسه فعل ذلك بنية خالصة تلتمس الحقيقة، لا بنية أخرى، فكان الرجل رقم ١ هو الذي قرر توجيه تلك الدعوة إلى شقيقته .

ولما احتاط فاروق لما قد يبدر من فوزية في المطار لم يكن متصفا بالاضطراب بل كان حقيقة متوجسا خيفة، فكان الرجل رقم ١ هو الذي احتاط «للطوارئ». غير أنه ما كادت فوزية تصل إلى قصر أنطونيادس حتى حلّ الرجل رقم ٢ محل الرجل رقم١ .

فلما عالج فاروق أقفال حقائب شقيقته وهشمها كان الرجل رقم ٢ هو الذي سيطر في تلك الفترة على إرادته ومشاعره، وهو الذي انتزع منها ما حلا له انتزاعه!

ولكن سيطرة الرجل رقم ٢ على فاروق لم تطل في تلك المناسبة، فبعد ما عبث بالحقائب وحقق شهوته بالاستيلاء على ما استولى عليه من محتوياتها «انسحب» وأفسح المجال للرجل رقم ١ .

ومرت الأيام التالية من غير أن يظهر للرجل رقم ٢ أثر، فتبين للرجل رقم ١ ما تبين لي ولسائر العارفين بأمر التقارير السرية وهو أن معلومات هذه التقارير لم تكن صحيحة!

وفي خلال تلك الأيام لم تعرف فكرة الطلاق طريقها للرجل رقم ١ دقيقة واحدة!

وأنّى لفكرة كهذه أن تخطر له وجميع الدلالات التي يشاهدها أمامه تكذب التقارير السرية وتفضحها! .

ولكن بينما كان الرجل رقم ١ يتتبع هذه النتيجة بغبطة وسرور عظيمين كان الرجل رقم ٢ يتأهب لوثبة جديدة .

وفي ذات يوم قال الرجل رقم ٢ لفاروق : لماذا لا تستغل موقف فوزية لمصلحتك؟

فقال فاروق : وكيف أستطيع أن أستغله لمصلحتي؟

فقال الرجل رقم ٢ : بأن تطلقها من زوجها .

فقال فاروق : وماذا أفيد من ذلك ؟ . . . إني لا أرى أين مصلحتي في هذا الطلاق .

فقال الرجل رقم ٢ : أنت مختلف مع زوجتك فريدة ، وتنوى أن تنفذ فكرة طلاقك منها في أول فرصة مناسبة ، فمن مصلحتك أن تظهر لشعبك وللناس في الخارج أنه ليس في مسلكك ما يدعو إلى الدهشة أو المؤاخذة ، وأنك لست العاهل العصري الوحيد الذي يطلق زوجته الجميلة في هذا العصر . . . فها هو شاه إيران الشاب ، العاهل الشرقي مثلك ، يختلف مع زوجته الجميلة أيضا وينفصل عنها ويطلقها!

فقال فاروق : هل تظن أن طلاق الشاه وفوزية يفيدني حقيقة؟

فقال الرجل رقم ٢ : يفيدك حتما ولا سيما إذا أعلن يوم إعلان طلاقك من فريدة فيخفف من وقع طلاقك في نفوس الناس فلا تنصب جميع التعليقات على طلاقك أنت وحدك!

فقال فاروق : يبدو لي أنها فكرة لا تخلو من حكمة وإن كان تنفيذها لا يخلو من صعوبة .

فقال الرجل رقم ٢ : إذا استقر قرارك على الأخذ بها فأنت قادر على تذليل جميع الصعاب . . . ثم إنك ستجني من تنفيذها فوائد أخرى .

فقال فاروق في لهفة : اذكرها لي .

فقال الرجل رقم ٢ : لا يخفى عليك أن في مصر ، وفي غير مصر ، دعاية قوية ضدك أساسها أنك تهجر زوجتك وقصرك لتغشى المحال العامة والأندية الليلية فتلهو وتعبث بينما فريدة تعيش أسيرة في القصر ، فإذا أبقيت فوزية إلى جانبك واستصحبتها معك في المجتمعات وأحطتها بمظاهر الحب والعطف والرعاية فإن ربحك من ذلك يكون كبيرا إذ سيظهر للناس عندئذ أنك محروم من رفقة الزوجة

وحنانها، وأنك تحاول أن تجد ما يعوضك عن ذلك بجوار شقيقتك المنكودة الحظ مثلك . . . فضلا عن أن الناس سيقولون إنه إذا كان هذا الرجل يستصحب معه شقيقته في كل مكان فهذا دليل على أنه كان يحب أن تكون زوجته هي التي تصحبه في غدواته، ولكن القدر القاسي شاء غير ذلك!

ومضى الرجل رقم ٢ في حديثه فقال : ثم إنه في الفترة التي ستنقضى بين طلاقك وزواجك مرة ثانية لا يمكن أن يظل القصر بدون «سيدة» تقوم مقام الملكة في استقبال قرينات السفراء والوزراء المفوضين، وفي حضور الحفلات والمناسبات التي تحضرها الملكة عادة . . . فمن أولى بذلك من فوزية كبرى شقيقاتك؟ . . ومن حسن الحظ أن بناتك يحببنها حبا جما فتستطيع بعد طلاقك أن تنسيهن فراق أمهن، ولا يخفى ما لهذا الاعتبار من أهمية وبخاصة في الفترة التي ستلي الطلاق مباشرة .

وهنا لاحظ الرجل رقم ١ أن ملامح فاروق تنم عن تأثره بآراء الرجل رقم ٢ وخضوعه لها، فقطع عليه حديثه وقال له : هل ترى من الحلال أن يطلقها من زوجها وأن يحرمها في سبيل الأغراض الأنانية التي تزينها له ؟!

فاستشاط الرجل رقم ٢ غضبا وقال : إن امرأة يتوافر لها ما يتوافر لفوزية من مقام وجمال وثروة تستطيع أن تجد سعادتها في مصر . . . بدلا من أن تعيش عيشة تعيسة في بلاد غريبة!

فقال الرجل رقم ١ : إن جميع الشواهد تشهد بأنها غير تعيسة فلماذا تريد أن تجعلها تعيسة بالقوة ؟!

فقال الرجل رقم ٢ : لقد أفنت طهران صحتها فذبلت قبل أوانها !

فقال الرجل رقم ١ محتدا : من قال ذلك ؟ . . . إنها ممتلئة نضارة وبهاء!

فقال الرجل رقم ٢ : وكادت تفقد قواها العقلية وتقدم على مصيبة !

فصاح فيه الرجل رقم ١ قائلا : حرام عليك هذه الفرايا يارجل . . . لقد ثبت لنا جميعا كذب ما زعمته التقارير السرية فما مصلحتنا في ادعاء غير ذلك؟

فقال الرجل رقم ٢ : من مصلحة فاروق أن يطلق الشاه من فوزية، ومصلحة الملك فوق كل مصلحة، فإذا قضت مصلحته بأن تكون فوزية غير سعيدة في زواجها فمن الواجب علينا أن نرى أن فوزية غير سعيدة في زواجها، وإذا قضت مصلحته بأن تكون فوزية تعيسة في حياتها في طهران فمن الواجب علينا أن نرى أن فوزية تعيسة في حياتها في طهران، وإذا قضت مصلحته بأن تكون صحة فوزية وسلامتها مهددتين فمن الواجب علينا أن نرى أن صحتها وسلامتها مهددتان فعلا!

فقال الرجل رقم ١ : حرام عليك أن تحرضه على عمل كهذا. . . ألا ترى أنك تدنيه كل يوم من الهاوية أكثر من اليوم الذي قبله؟!

فقال الرجل رقم ٢ : اسكت، فقد يدارى السكوت جبنك وخوفك وتخاذلك! . . . واعلم أن مشيئة الملك يجب أن تكون فوق كل مشيئة وأن مصلحته يجب أن تكون فوق كل مصلحة وفوق كل اعتبار!

فقال الرجل رقم ١ : اسكت أنت يا مستهتر. . . يا عدو!

فصاح الرجل رقم ٢ : قائلا : أنا عدو؟

فقال الرجل رقم ١ : بل شر الأعداء جميعا!

وتماسك الرجلان، وتصارعا صراعا عنيفا خرج منه الرجل رقم ١ مقهورا!

وقال فاروق للرجل رقم ٢ : لقد أعجبني رأيك وسأعمل به. . . بل سأشرع في تنفيذه فورا!

وهنا قال الرجل رقم ٢ لفاروق : أما وقد رجحت رأيي وأخذت به، وقررت تنفيذه، فعليك قبل كل شيء أن تكلم فوزية وأن تقنعها بالفكرة. . . قل لها إنك تلقيت من طهران تقارير سرية على أعظم جانب من الخطورة وأن هذه التقارير أنبأتك بأن بعض الذين لا يرضيهم أن تكون الإمبراطورة مصرية الأصل دبروا مؤامرة من أبشع المؤامرات للتخلص منها، وأنهم أحكموا تدبير مؤامرتهم ليكفلوا نجاحها فجعلوها من عدة حلقات حتى إذا أحبطت في بعض مراحلها فلا تحبط في

سائر المراحل، وأنه لا يستبعد أن تتخذ إحدى تلك الحلقات مظهر فضيحة خلقية تختلقها بعض العناصر المأجورة وتلصقها بالإمبراطورة قضاء لمآرب المتآمرين.
وبعدما تصف لها هذا كله بلهجة تبعث فيها الرعب والاضطراب لا تنتظر حتى تسألك هي عما يمكنها أن تعمل، بل اضرب ضربتك قبل أن تهدأ أعصابها وقل لها إنك لخوفك على حياتها وقلقك على سلامتها قررت ألاّ تعود إلى طهران وأن تطلب الطلاق من الشاه، وأن تبقى في مصر حيث كل شيء يكون مبذولا في سبيل إراحتها وإسعادها! . . . ولا أظن أن مهمتك في إقناعها ستكون عسيرة فإنها تحبك وتثق بك ولا تقوى على معارضتك وعدم إطاعتك وخصوصا إذا أتقنت تمثيل دورك وألقيت في روعها أن حياتها في خطر!!

فقال فاروق: وابنتها . . . قد يشق عليها هجرها.

فقال الرجل رقم ٢: إذا اعترضت بذلك فقل لها أيهما أفضل: أن تفقد الابنة أمها إلى الأبد أم أن تشعر الابنة بأن أمها على قيد الحياة ولو كانت بعيدة عنها إلى حين؟ ثم راقب بعد ذلك بريدها وامنع عنها كل جوابات أو صور قد تبعث بها إليها ابنتها. . . فيضعف شوقها إليها على مر الأيام!

فقال فاروق: وإذا وافقت فوزية على رأينا فماذا أصنع؟

فقال الرجل رقم ٢: في هذه الحالة تتخذ حالا إجراء حاسما يقطع على فوزية «خط الرجعة». . . يجب عليك ألا تتركها ساعة واحدة في قصر أنطونيادس خشية أن تغير رأيها أو أن تستشير أحدا في أمرها فتبعثها مشورته على التردد! بل اعمل عملا «يقيدها» بالموافقة التي ظفرت بها منها «ويربطها» «ويضطرها» إلى المضي في طريق الطلاق حتى نهايته. . . قل لها إنك ستبقيها من هذه الساعة في قصر المنتزه لتكون وهي في حماك بعيدة عن رجال الحاشية الإيرانية فمن يدري؟! وقل لها إنك ستنقل حقائبها إلى المنتزه سرا خوفا من أن يتدخل رجال الحاشية الإيرانية لديك فيحرجوك. . . هذا ماتقوله لفوزية. . . أما في الحقيقة فإن الغرض من هذا الإجراء هو أن تقطع عليها كل «خط رجعة» كما قلنا. . . ولا أخفي عليك أنه سيكون لهذا الإجراء فائدة أخرى وهي أن يغضب الشاه فإذا غضب فلعله يطلق فوراً؛ ولذلك يحسن بك أن تقرن هذا الإجراء بإجراء آخر يسيء إلى رجال الحاشية

الإيرانية ويستفز الشاه فيزيده حنقا وغضبا . . . كما يزيد من «توريط» فوزية في الخطوة التي خطتها!

وهنا كان الرجل رقم ١ قد استرد بعض قواه فقال: إن فوزية شقيقتك يا فاروق.

فنهره الرجل رقم ٢ قائلا: مصلحة الملك فوق كل مصلحة. أتفهم ذلك أم . . ؟

ونكّس الرجل رقم ١ رأسه.

وأخذ الرجل رقم ٢ يملي على فاروق تفاصيل الخطة التي تنفذ في قصر أنطونيادس!

وكلّم فاروق شقيقته، وأقنعها بضرورة الطلاق!

ونفذ خطة اختطافها، وإخلاء قصر أنطونيادس، والإساءة إلى رجال الحاشية الإيرانية!

واغتبط الرجل رقم ٢ بالنتائج التي حققها حتى الآن، وأخذ يترقب النتائج المقبلة فرحا متفائلا!

وذلك (وكأنه) هو الحوار الذي دار بين الشخصيتين المجتمعتين في فاروق . . . وتلك كانت نتيجته!

وقد يبدو للقارئ كما أتصوره أنني استوحيته من خيالي . . . إلاّ إذا كان فاروق صارحني يومئذ بكل ما دار في رأسه!

وأبادر فأعترف بأنه لم يصارحني بشيء، ولم يذكر لي سوى ما رددته في صفحة سابقة وهو أن فوزية ترغب في الطلاق لأسرار كاشفته بها وأقسم لها بأنه لن يفشيها لأحد.

وأعود هنا فأكرر أنني لم أصدق كلمة واحدة مما قاله لي تبريرًا لقراره الفجائي بوجوب تطليق فوزية من الشاه بينما كانت جميع الشواهد والدلائل لاتسوغ أي تفكير من هذا القبيل.

فلا فوزية أسرت إليه أنها ترغب في الطلاق، ولا هي أطلعته على أسرار تؤيد المزاعم التي تضمنتها التقارير السرية!

وإنما كانت الفكرة كلها من وحي الرجل رقم ٢ .

أما الحوار الذي دار في رأس فاروق بين الرجل ١ والرجل رقم ٢ فاستخرجته من تصرفات فاروق بعدما استقر قراره على تنفيذ الفكرة . . . فقد كانت تصرفاته المرآة التي انعكست عليها جميع الخواطر التي خطرت للرجل رقم ٢ على نحو ما سيظهر للقارئ بوضوح تام .

وقبل أن أتحدث عن حياة فوزية الجديدة في قصر المنتزه أود أن أختتم هذا الفصل عن الرجلين اللذين يتنازعان إرادة فاروق وتفكيره وعواطفه بقصة حادث صغير في ذاته كبير في دلالته .

ولئن كان هذا الحادث قد حدث بعد انتقال فوزية إلى المنتزه بفترة قصيرة فإني أورده هنا لأنه قد يساعد على استكمال حديثي عن الرجلين اللذين كان فاروق يتألف منهما .

فقد أرادت فوزية أن تكتب إلى الشاه رسالة في موضوع معين ، فوافق فاروق على طلبها وأمر الديوان الملكي بأن يعد مشروع الرسالة باللغة الفرنسية .

وكان رجال الديوان يعلمون أن فوزية تبغي الانفصال عن الشاه وأن سفير مصر في طهران فاتح جلالته في أمر الطلاق ، فكان من الطبيعي أن يسألوا فاروق عن الصيغة التي يود أن تكتب بها الرسالة ، فكان جوابه : بالصيغة التي يجدر بإمبراطورة أن تكتب بها إلى زوجها الإمبراطور .

ومن المعروف أن في الفرنسية مؤلفات ضخمة تعالج جميع شئون «البروتوكول» وتستوفي بحث كل موضوع بإيراد طائفة من الأمثلة منتقاة من أشهر « السوابق» الفرنسية والأجنبية في عالم المراسم والتقاليد الدولية ، وفي الفصول التي تضمنتها هذه المؤلفات عن المراسلات الملكية نماذج كثيرة للصيغة التي كانت أعرق الأسر الملكية والإمبراطورية في أوربا تستعملها في مكاتباتها الخصوصية في مختلف المناسبات .

ورجع رجال الديوان إلى المؤلفات المذكورة وبحثوا عما تحوي من نماذج في أقرب موضوع إلى موضوعهم واستعانوا بها على إعداد مشروع الرسالة التي طلب إليهم فاروق كتابتها بلسان الإمبراطورة .

وعلى ضوء النماذج التاريخية التي كانت أمامهم كان يتعين على فوزية أن تختم رسالتها إلى زوجها بقولها : «زوجتك وخادمتك فلانة» ولكنهم تساءلوا هل سيستحسن فاروق هذه « الخاتمة » أم سيحذفها ويوعز بإبدالها بخاتمة أخرى تكون أكثر «مناسبة للظروف»، وقالوا إنه لايعقل أن يقبل أن تقول الإمبراطورة «زوجتك وخادمتك» لرجل تطلب الطلاق منه وتوقعوا أن يحذف كلمة «خادمتك» على الأقل!

ورأى رجال الديوان أن يوجهوا نظر فاروق إلى «الخاتمة» قائلين إنهم نقلوها «على علاتها» عن النماذج التي استشهدت بها كتب «البروتوكول». . . إلاّ إذا كان لجلالته توجيهات أخرى فتتغير «الخاتمة» على أساسها!

وإذ فاروق يدهشهم جميعا بقوله : الواجب واجب. . . وما دامت الإمبراطورة لم تطلق بعد فمن الواجب عليها أن تكتب إلى الشاه بالصيغة التي تشير بها النماذج التقليدية!

وأمر بأن تبقى «الخاتمة» على ما هي عليه: زوجتك وخادمتك!

ثم قال : أنا أحب دائما أن أعمل «الأصول» . . . فالخلاف شيء وواجب اللياقة والأصول شيء آخر. . . وقد يرى بعضكم أن هذه الصيغة قديمة ومبالغ فيها ولا تساير روح العصر الذي نعيش فيه ولا تلائم ظروف شقيقتي ولكني مع ذلك أقول لكم بصراحة إنني أفضلها على أي صيغة أخرى. . . فالأصول أصول كما قلت لكم، والإنسان لا يندم قط على عمل الأصول والواجب!

ورسم الحاضرون على وجوههم علامات التقدير والإعجاب والإكبار، وقالوا: تمام كده يا مولانا. . . تمام!

وطمع أحدهم في أن يخصه الملك بابتسامة مستقلة فقال كأنه يخاطب نفسه: أخلاق ملوك صحيح!

ولم يبتسم له فاروق بل قال: لا يا فلان ليست المسألة مسألة ملوك. . . إنما المسألة مسألة واجب وأصول سواء كان الإنسان ملكا أو غير ملك!

وبعد هذه المحاضرة في الواجب، وفي آداب الأصول والمجاملة، أمر فاروق بانتساخ الرسالة وإرسالها إلى فوزية لتمضيها «بالخاتمة» التي وافق عليها.

واتصل بفوزية تليفونيا وقال لها بالفرنسية : اعذريني «ياشيري» إذا كنت أزعجك . . . إنما أحببت أن أقول لك إن الديوان أعد جوابك إلى صاحبنا وسيرسلونه إليك لإمضائه . . . وقد تجدين بعض عباراته «موضة» قديمة ولكن الأصول تقضي بذلك . . . ونحن يا «شيري» نريد أن نحافظ على الأصول حتى النهاية . . . «نوبلس أوبليج» "Noblesse Oblige" [1].

كيف أنت اليوم ؟ . . حسنا جدا . . . سأراك فيما بعد . . . «أورفوار شيري» !

هكذا كان فاروق ! !

---

(١) قول فرنسي مشهور معناه أن النبل أو الأصل النبيل يوجب ذلك!

الفصل السابع

بين «الإمبراطورة» و«الملكة»

لما انتقلت فوزية إلى «المنتزه» أقامت في «الحرملك».

وفي المنتزه قصران، أحدهما القصر القديم وهو الذي بناه الخديو عباس حلمي الثاني وكانوا يسمونه «السلاملك» والآخر القصر الجديد وهو الذي بناه الملك فؤاد وكانوا يسمونه «الحرملك».

ومنذ اختلاف فاروق وفريدة وتقاطعهما، كانت فريدة وبناتها يقمن في «السلاملك» عند انتقالهن إلى المنتزه لقضاء الصيف على شاطئ البحر، وكان فاروق يقيم في «الحرملك».

وفي أيام الصفاء كانت العلاقات بين فوزية وفريدة قائمة على صداقة ومودة متبادلتين، فلما عادت فوزية إلى مصر من طهران وألفت النزاع مستحكما بين شقيقها وزوجته لم تجدد صلاتها بفريدة وخصوصا أن فريدة لم تبد من جهتها ما ينم عن رغبتها في استئناف تواصلهما.

وكانت فريدة في تلك الأيام لا تنشد سوى البعد عن فاروق، وعن كل ما يمت إلى فاروق بصلة!

وأعدوا لفوزية جناحا خاصًا في الجهة المقابلة للجناح الخاص بفاروق في «الحرملك» ورتبوا لخدمتها العدد اللازم لها من «كلفوات» وخدم، وأمر فاروق أن يستمر المحيطون بها على تلقيبها «بجلالة الإمبراطورة» إلى أن يعلن الطلاق رسميا فتسترد لقبها القديم: حضرة صاحبة السمو الملكي الأميرة فوزية.

وبهذه المناسبة أود أن أشير إلى أنني لم أسمعها يوما تقول لنا: بلاشي تنادوني «إمبراطورة»! أو قولوا لي «برنسيس فوزية» بدلا من «إمبراطورة»!

أو : متى أخلص من «إمبراطورة» وأعود «برنسيس» فوزية كما كنت!

كلا . . . لم تقل لنا شيئا من هذا قط!

ولم يظهر عليها قط أنها تريد أن تقول شيئا من هذا !

مع أنه كان من الطبيعي، إذا صح ما عزاه فاروق إليها من أن تخونها أعصابها يوما فتظهر تبرمها بلقب «إمبراطورة» !

ولكنها على عكس ذلك أظهرت لنا في كل وقت أنها لا ترى في هذا اللقب شيئا غير طبيعي مهما كثر ترديده في خلال الحديث!

وأمر فاروق أن يكون للإمبراطورة «سفرة» (مائدة) خاصة أسوة «بسفرة» جلالة الملك و«سفرة» جلالة الملكة.

ومع أن المطابخ كانت واحدة كانت معظم الألوان التي تقدم كل يوم على الموائد الثلاث غير متماثلة . . . ولم أستطع قط أن أعرف سر اختلافها وخصوصا أنها كانت متعادلة في عددها ومتساوية في نوعها على الموائد الثلاث . . . وعلى كل حال فمن المؤكد أن ذلك لم يكن يعمل توخيا للاقتصاد في النفقات!!

وقبل أن يعلن طلاق فوزية رسميا كان فاروق يدعوها إلى الغداء على مائدته كل يوم، فلا تمس مائدتها يد، ومع ذلك كانت «سفرة» الإمبراطورة تعد وتمد يوميا كأنها تعيش في قصر مستقل . . . حتى في المساء كانت مائدتها تعد وتمد بانتظام سواء كانت متعشية في القصر أو مدعوة إلى العشاء مع فاروق في مكان عام!

وكان فاروق في حياته الخاصة لا يلتفت إلى ملابس الخدم الذين يخدمونه، وكثيرا ما كان «السفرجية» في فصل الصيف يخدمون مائدته وهم بالقميص والبنطلون فقط وذلك بأمر منه . . . أما فيما يتعلق «بالسفرجية» الذين يخدمون الإمبراطورة فأمر بأن يرتدوا دائما الملابس السوداء أو الملابس الرسمية . . . مع القفازات البيضاء!

ومنذ اعتصمت فوزية بالمنتزه لم تنزل إلى البحر للاستحمام إلاّ لما كان فاروق يدعوها إلى الاستحمام في البقعة التي اختارها لهذا الغرض . . .

وكان على شاطئ البحر في داخل المنتزه عدة «كابينات» للجلوس والاستحمام، وكانت تقوم في مواقع غير متقاربة، وغير متقابلة، بحيث إن

الجالسين في «كابينة» منها كانوا لا يشاهدون الجالسين في «كابينة» أخرى. . . وقد اعتاد فاروق أن يتردد دائما مع ضيوفه على «كابينة» واحدة لا يغيرها ولا يبدلها، وقد أقيمت في مكان تحجب صخوره المستحمين عن أعين الرقباء ولو كانوا مزودين بأحدث النظارات.

وبذلك كان كل فريق من سكان القصرين واثقا من أنه لن يصطدم بالفريق الآخر إذا كان لكل منهما طريقه، وبقعته، وشاطئه، و«كابينته» وكانت فريدة ـ زيادة على ذلك ـ تعرف أن فاروق لا يستحم إلاّ بعد الظهر فلم أسمع قط أنهما تقابلا وهما في طريقهما إلى «البلاج» وكثيرا ما خيل إليّ في آخر عهد زواجهما أن فريدة استغنت عن الاستحمام في البحر استغناء تاما.

وفي الأيام التي كان فاروق ينزل إلى البحر كان يتغذي في «الكابينة» مع الذين يتصادف وجودهم معه، ومع أن الغداء في ذلك المكان كان غداء «بوهيميا» إما بملابس الاستحمام أو بما يقرب منها، كان فاروق يحرص على أن تقدم ألوان الطعام «للإمبراطورة» في اللحظة التي تقدم له هو فيها على نحو ما كان متبعا في معاملة «ضيوف الشرف» في المآدب الملكية!

ولما انتهى موسم الاصطياف وعاد البلاط إلى القاهرة رجع فاروق إلى الإقامة في قصر القبة وعادت فريدة إلى قصر عابدين، وخصص للإمبراطورة جناح كامل في قصر القبة مع استمرار النظام الذي كان معمولا به في المنتزه.

وكانت فوزية تنفق من مالها الخاص المتوافر لها عند الخاصة الملكية، وكانت الخاصة الملكية هي التي تسدد جميع فواتير مشترياتها مادام على الفاتورة «تأشيرة» منها بأنها تقر قيمتها وتوافق على صرفها.

وكان لها سيارتها الخاصة، وسائقها الخاص، وكانت «الجاراجات» الملكية تحت تصرفها في كل وقت.

وبينما كان فاروق يبذل قصارى طاقته لإراحة الإمبراطورة وإرضائها، كان من جهة أخرى يصدر أوامره إلى الجهات المختصة بأن تحبس عنها الرسائل البريدية التي ترد من طهران باسمها وأن ترفعها إليه بدلا من رفعها إليها، وقال في تبرير ذلك إنه يبغي أن يحول بينها وبين كل ما قد يثير أعصابها ويسيء إلى صحتها!

والحقيقة أنه كان يخشى أن تتلقى رسائل وصورا من ابنتها فتهز اشتياقها إليها، فتضعف أعصابها، فتتردد في المضي في الطريق الذي اقتنعت بأن تسير فيه.

وفعلا حجز عنها صورا كثيرة أرسلتها إليها ابنتها، وحجز كذلك الكلمات التي كانت تكتبها إليها وترفقها بها، ولم يطلعها على شيء منها! . . . بل قال لها يوما إن عدم ورود «كلمة واحدة» من طهران ظاهرة خليقة بأن تتأمل في مغزاها!

ومن الطبيعي أن الابنة، كانت تنتظر ردا على كلماتها وصورها فلما طال انتظارها، وخاب أملها، كفت عن الكتابة إليها فاستراح فاروق من هذه الناحية.

وأمر فاروق جميع الذين يختلطون بالإمبراطورة ألاّ يذكروا إيران، أو الشاه أو الابنة في أحاديثهم معها.

وكان يتصفح بنفسه ما يجلب لها من صحف ومجلات محلية وأجنبية ليطمئن إلى خلوها من كل حديث أو صور عن إيران وعن الأسرة الإمبراطورية. . . وكان يهتم بالصور بصفة خاصة!

ونشرت يوما إحدى المجلات المصرية طائفة من الصور للأميرة «نازشاه» كريمة الشاه والإمبراطورة فوزية، فأقام الدنيا وأقعدها، وطاف بحجر «الحرملك» حجرة حجرة خوفًا من أن تكون نسخة من تلك المجلة قد تسربت إليها عمدا، أو سهوا، ولم يهدأ له بال إلاّ لما تأكد أن نظر فوزية لم يقع على المجلة التي أزعجته صورها!

وأصدر تعليمات مشددة إلى الموظف المختص بالسينما في القصر أن يستبعد كل شريط يحتمل أن يحتوي على مناظر تذكر الإمبراطورة بإيران ولاسيما الأشرطة الإخبارية. . .

وحتى موسيقى القصر حذفت من برامج ألحانها لحنا مشهورا اسمه «السوق الفارسية» (The Persian market).

وعلى أثر انتقال فوزية إلى المنتزه جاءت «الأميرتان» الصغيرتان فريال وفوزية لزيارتها. والسلام عليها، وكانتا شديدتي التعلق بها، وكانت هي من جهتها تبادلهما حبهما وتعطف عليهما عطفا كبيرا.

وأوعز فاروق إلى شقيقته بألاّ تسأل الصغيرتين عن أمهما، وقال لها إن ذكرها لا يرد أبدا عندما تكون «البنات» عنده ولذلك لن يستغربن عدم سؤالها عنها.

وكان فاروق يشير إلى كريماته تارة بقوله «البنات» وتارة أخرى بقوله «الأولاد» وإذا كان يتحدث بالفرنسية قال «Les enfants».

وأوعز إلى مربية «البنات» بأن توصيهن بعدم سؤال عمتهن عن ابنتها... أو عن «عمهن» (الشاه)!

وكانت «البنات» في إدراكهن لحقيقة العلاقات بين والديهن لا يطلبن تفسيرا لهذه التعليمات وقد ألفن وضعهن الشاذ، وتعودنه، و«دربن» عليه فعرفن أنه ينبغي لهن عند وجودهن في مجلس أبيهن أن يغفلن كل إشارة إلى أمهن حتى إذا رجعن إليها وجب عليهن أن يمسكن عن ذكر أبيهن، وقد رأيتهن بصحبة والدهن في مناسبات شتى فلم ألاحظ يوما أن لسان إحداهن زل ونطق كلمة «ماما» عفوا مع كثرة الموضوعات التي كن يتكلمن فيها... كأن النظام الذي دربن عليه أضحى جزءا من طبيعتهن!... فلما أوصين بعدم سؤال الإمبراطورة عن الشاه وابنتها لم يرين في الأمر جديدا عليهن!

وفي أثناء إقامة البلاط في الإسكندرية كانت «البنات» يمضين يوم الجمعة برفقة عمتهن في ضيافة والدهن في استراحته البحرية على مقربة من قصر رأس التين، فلما عاد البلاط إلى القاهرة قلّت اجتماعاتهن بها إذ كن يقمن مع والدتهن في قصر عابدين ولا يذهبن إلى قصر القبة إلاّ في المناسبات.

ورأى فاروق أن الحصار الذي ضربه حول فوزية لن يمنعها من التفكير فيما يحجبه عن نظرها ويحجبه عن سمعها، فقرر أن يشغل ذهنها بزيادة عدد الحفلات والمجتمعات والرحلات التي يستصحبها إليها، فلا يتسع لها وقت للتأمل فيما سيئول إليه أمرها حتى ينتهي سفير مصر في طهران من تسوية موضوع الطلاق في البلاط الإمبراطوري.

وكان يحيطها في كل مجلس، وفي كل محفل، بأعظم مظاهر الحب والعطف والعناية، من جهة ليرضيها وينسيها همومها، ومن جهة أخرى ليكتسب تقدير الناس لهذا البر بشقيقته وليستدر عطفهم على حالته في الخلاف القائم بينه وبين زوجته!!

ولكنه بالغ في تمثيل الدور وغالى ، وما لبث فريق من الناس أن رأى في بعض المظاهر التي يحيط بها شقيقته ما يجاوز المألوف في العلاقات الأخوية . . . فاستغل خصومه سوء التأويل وروجوه!

وكان قد فكر من زمان طويل في تنظيم رحلة بحرية في البحر الأحمر لزيارة شواطئه وصيد السمك فخطر له أن ينفذ هذه الفكرة في تلك الأيام ليسري عن شقيقته يروح عن نفسها، فقابل الناس نبأ هذه الرحلة باستهجان وعدوها ضربا من ضروب الاستهتار إذ كانت أخبار مفاوضات الطلاق قد انتشرت في الأندية والمجالس وانتشرت معها طبعا مجموعة من الإشاعات والروايات!

والخلاصة أنه بدلا من أن تكسبه «مظاهره» لفوزية العطف الذي كان يمنى به نفسه جرت عليه سخطا جديدا كان في غنى عنه!

وبعد عودتهم من تلك الرحلة البحرية لفت بعضهم نظر فاروق إلى «الثروة» التي تنفقها فوزية على شراء الفساتين والملابس، وقالوا له إن رصيدها المتجمد في الخاصة الملكية نقص نقصا كبيرا بسبب المال الطائل الذي أنفقته في هذه السبيل . . . والتمسوا منه أن ينصح لها بالاعتدال في نفقاتها . . . فنهرهم ونبههم، وقال لهم: «إن جلالة الإمبراطورة حرة في مالها وفي اختيار الوجوه التي تنفقه فيها»!

والواقع أن فوزية كانت تسرف في ذلك الحين إسرافا لا حد له في اقتناء الملابس مع عدم حاجتها إلى أغلبها، وكان في خزائنها مجموعة كبيرة من الفساتين لم تلبسها سوى مرة واحدة، بل كان عندها فساتين كثيرة لم تظهر بها قط لزيادة عددها على عدد المناسبات التي يمكنها أن تلبسها لها، ومع ذلك كانت تواصل شراءها وتكديسها بلا انقطاع دون أن تعلم لماذا تشتريها أو متى سترتديها، ودون أن يخفى عليها أن الأزياء تتغير باستمرار وأن ما تشتريه اليوم لن تلبسه في السنة القادمة!

ومع أن فاروق كان يعلم أن الشكوى في محلها، وأن شقيقته تبذر المال تبذيرا، تظاهر بعدم الاكتراث لذلك إذ رأى أن الوقت غير مناسب للتكلم معها في هذا الموضوع وأنه يحسن به أن يرجئ التعرض له حتى يتم طلاقها . . . هذا الطلاق الذي كان يسعى لاستتمامه بكل وسيلة!

واستيقظ فاروق في صباح أحد الأيام قلقا وقال لبعض رجاله : لقد احتطت في موضوع فوزية لأمور كثيرة ولكن فاتني أمر مهم لا أدري كيف تغافلت عنه !

ولم يشأ أحد منهم أن يكون البادئ بسؤاله عن الأمر المهم الذي أغفله كأنهم أبوا أن يسلموا بأن «الذات العلية» تتغافل ولو شاءت أن تتعمد الغفلة !

وهذا ما كانوا يسمونه «الأدب السرايتلي» !

وكان فاروق شغوفا بهذا النوع من الأدب ، ويفرحه كثيرا أن تتسم به أحاديث رجاله وحركاتهم في علاقاتهم به !

والعجب في ذلك أنه كان يعلم في أحوال كثيرة أنه أدب «اصطناعي» وأن أصحابه يتكلفونه نفاقا ، فلا يزيده رياؤهم إلآ تذوقا له وإعجابا به ، كأنه كان يرى في تأدبهم به مظهرا للتوفير والإجلال ودليلا على الطاعة والامتثال !

ولما لم يتكلم أحد منهم ، قال : نسيت فائزة !

الفصــل الثامن

محمد علي رءوف والطربوش

كانت فائزة تكثر من زيارة شقيقتها، وكانت فوزية تكثر من التردد عليها، ككل شقيقتين متقاربتين في العمر ، تحب إحداهما الأخرى وتخلص لها.

لم يكن في ذلك إذن ما يدعو إلى الاستغراب.

ولكن فاروق كان يعرف أخلاق فائزة وطبائعها، وكان يعلم أنها ليست لينة الانقياد كفوزية وأنها تتمرد أحيانا، وأنه لايستطيع أن يضمن إذعانها لمشيئته في كل وقت.

فلما قال «نسيت فائزة» . . . كان يعني أن فائزة تجتمع بفوزية، وأن فائزة جريئة ومندفعة، وأن فائزة قد تكاشف فوزية بما يفسد عليه الأغراض التي توخاها من الحصار الذي أقامه حولها!

واتجه رأيه في أول الأمر إلى تحذير فائزة مما يقلقه من ناحيتها ثم عدل عن هذا الرأي مخافة أن يحرك ظنونها فيداخلها ريب في «صحة» الادعاءات التي أقنع فوزية بها فتصارحها بارتيابها فيها!

ولم يستصوب إطلاعها على سره . . . فقد لا تواطئه على ما عزم عليه، وقد تجاوز ذلك في عنادها واندفاعها فتفضي إلى فوزية بما أسر إليها!

وأخيرا اختار أسلم السبل عاقبة . . . فقرر أن يباعد بين الشقيقتين وأن يعمل على التقليل من اجتماعاتهما!

ولما اجتمع بفوزية في ذلك اليوم ألقى إليها أنه غير راض عن محمد علي رءوف لأنه يصاحب أناسا يجدر به أن يقلل من مصاحبتهم، ويعاشر أناسا لا يليق به أن يعاشرهم ناسيا أو متناسيا أن زوجته «صاحبة سمو ملكي» وأنها ابنة ملك وشقيقة ملك!

وإذ لاحظ أن هذا الكلام وقع موقعه في نفس فوزية أراد أن يستميلها إليه بالدفاع ظاهرا عن فائزة فقال: وفائزة مظلومة في ذلك فإنها لم تعرف المجتمع إلاّ بعد زواجها فمن الطبيعي أن تغيب عنها أمور كثيرة، ولكن اللوم على زوجها، وهو في نظري المسئول عما أخذت بعض الألسن تلوك به عنهما. . . ولا يعزيني في ذلك سوى يقيني أن فائزة ذكية وأنها ستفطن قريبا إلى أخطاء زوجها فتتدراكها وتتلافاها!

ولم تعقب فوزية على حديثه فمضى فيه قائلا: وكنت أريد أن أكلمك في ذلك من مدة، ولكن لما لاحظت أنهما قللا أخيرا من الاتصال بك قلت إن الأمر أخذ يعالج نفسه بنفسه. . . ولا يخفى عليك أن لك مقاما يعلو على مقام فائزة، وأن ظروفك تختلف عن ظروفها، وخصوصا أنك بعيدة عن زوجك ومقبلة على طلاق، ولذلك سرني دائما أن أراك مقدرة هذه الاعتبارات وفي غير حاجة إلى من يذكرك بها!

وبهذه الكيفية أفهم فاروق شقيقته فوزية أنه يتعين عليها أن تقلل من اجتماعها بفائزة وزوجها!

بل أفهمها ما هو أكثر من ذلك. . . أفهمها أنه غير راض عن محمد علي رءوف بحيث إذا سمعت منه أو من فائزة ما يمسه عزت الحديث إلى شعورها بعدم رضائه عنهما!

وكأنما أراد أن يرسخ في ذهنها أن محمد علي رءوف لا يتمتع بعطفه ورضائه فاستطرد قائلا: ولا أكتم عنك أن قلبي لم يمل إلى رءوف من أول لقاء لنا. فقلت يومئذ لعل شعوري نحوه يتغير عندما أعرفه وأخبره فإذا الأيام بدلا من أن تجذبه إليّ تنفر قلبي منه. . . اسمعي هذه القصة الصغيرة. . . أبلغته بعد زواجه بفائزة رغبتي في ألا يظهر حاسر الرأس في المناسبات الرسمية وخصوصا في القصر. . . فكان جوابه أنه تركي وأنه احتفظ بجنسيته التركية وأن الترك منذ ما ألغوا الطربوش يحضرون الحفلات الرسمية حاسرين. . . فقلت إن وضعه في مصر يختلف عنه في تركيا وبخاصة بعد ما تزوج من شقيقة الملك وإنه يجمل به أن يراعي هذا الاعتبار فيلبس الطربوش ولو عند حضوره إلى القصر. . . فوعدني بأنه سينزل على رغبتي. . . ثم نكث بوعده ولم يوفِ به، وعاندني، وداوم على الظهور في كل

مناسبة بدون طربوش . . . فاضطررت إلى إصدار أمري بالكف عن دعوته إلى الحفلات الرسمية سواء كانت في القصر أو في غير القصر . . . وقد أضطر إلى منع دخوله القصر حتى في الزيارات والمناسبات إذا رأوه مقبلا من غير طربوش!

وكانت فوزية بطبيعتها تكره المنازعات وتمقت الخلافات فقررت بعد هذا الكلام أن تقلل من اتصالاتها بفائزة وزوجها بقدر الإمكان.

وساعدها فاروق على تحقيق ذلك . . . فتعمد يوما أن يذكر أمام صديق لرءوف أنه «غير راض» عنه وعن بعض «تصرفاته»!

وبلغت أقواله سمع رءوف طبعا فقرر وفائزة ألاّ يذهبا في المستقبل إلى القصر إلاّ عندما يتلقيان دعوة من فاروق بالذهاب إليه.

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن تقل الاتصالات بين فوزية وبينهما مادامت ضيفة على فاروق وتقيم في قصره.

ومن ذاك الحين أضحت العلاقات بين فاروق وفائزة وزوجها، كعلاقاته بجميع أصدقائه، تذكرني دائما بأحوال الأسهم في الأسواق المالية.

فقد ترتفع أسعار الأسهم أحيانا بدون أن يعرف لارتفاعها سبب، وقد يكون ارتفاعها إما مطردا أو دفعة واحدة، وعلى هذا المنوال نفسه قد تهبط بدون أن يعرف لهبوطها علة أو مبرر.

وكذلك كان فاروق في علاقاته الخصوصية!

ففي بعض الأحيان كنا نلقى فائزة وزوجها في مجلسه أياما متوالية، وفي أحيان أخرى كانت تنقضي أشهر برمتها من غير أن يجتمع بهما دقيقة واحدة.

وفي بعض الظروف كان يسترسل في حديثه مع فائزة، ويداعبها، ويتبادل وإياها آخر النكات التي سمعها . . . وفي ظروف أخرى كان يجافيها ولا يوجه إليها حديثا . . . بل قد يوجه إليها قولا قارصا متعمدا إيلامها وإحراجها ولو كانت في ضيافته!

أذكر أنه في آخر يوم «شم نسيم» احتفل به قبل نزوله عن العرش، أقبلت فائزة

بملابس «سبور» مناسبة ليوم شم النسيم. . . ولمكان الدعوة وكانت على ظهر اليخت «محروسة». . . وكان الضيوف جميعا لابسين «سبور» حسب التعليمات. . . فبعد ما صافحهم وهنأهم بالعيد قال لفائزة بالفرنسية وبصوت مسموع: ما هذه الملابس التي تلبسينها. . . إنها غير جميلة!

فابتسمت وقالت له : إنها من «كابري».

وكانت قصص مغامراته في كابري قد شاعت وذاعت!

فقال: ومع ذلك فإني لا أراها جميلة!

ولم يوجه إليها طول ذلك اليوم سوى هذه التحية الرقيقة.

أما رءوف فكان أسعد الجميع حظا في «بورصة» فاروق إذ كان يعلم أن أسهمه مستريحة من جميع تقلبات السوق ومناوراتها!

بل إن رءوف كان الوحيد الذي يعلم دائما أين هو. . . وما مركزه الحقيقي.

وذلك لسبب بسيط: فقد كانت أسهمه على الدوام وفي جميع الظروف والأحوال في آخر مرتبة من مراتب الهبوط والنزول!

واستقرت على ذلك، فلم ترتفع يوما قرشا واحدا، ولم تنزل يوما قرشا واحدا!

كان فاروق يحييه عند قدومه ثم لا يعود إلى الالتفات إليه إلاّ ليودعه عند انصرافه!

ولا أذكر أنه خصه يوما بحديث. . . أستغفر الله. . . أو بعبارة واحدة!

بل لا أذكر أنني فاجأته يوما متلبسا بالابتسام له!

كان يحادث كل واحد إلاّ رءوف، ويقترب من كل واحد إلاّ من رءوف، ويبتسم لكل واحد إلاّ لرءوف!

كانت معاملته لرءوف هي التي لا تتغير ولا تتبدل أبدا!

وعرف رءوف مرتبة أسهمه في «بورصة» فاروق فقرر أن التحفظ التام خير مسلك يسلكه في حضرته.

فكان من لحظة دخوله على مجلسه إلى لحظة انصرافه منه لا يفوه بكلمة واحدة. فلا يروى قصة، ولا يشترك في حديث، ولا يبدي رأيا، ولا يعقب على كلام!

ولولا ابتسامة صغيرة كان يبتسمها من وقت إلى آخر لحسبته شارد الذهن، متشاغلا عما يجري حوله بالتفكير في أمر أهمّه.

ولكنه كان يعلم، من الأخبار، أن «فاروق» متحفز له، ومتأهب «لتسخيف» حديثه، أيا كان الحديث، وأيا كانت مناسبته، فكان يلزم أمامه هذا الصمت التام اتقاء لشره وصونا لكرامته!

وكل ما كان يفعله أنه كان يبتسم إذا ضحك فاروق أو ابتسم... فقد كان الأدب «السرايتلي» يقضي على جميع الحاضرين بأن يضحكوا عندما يضحك الملك، وأن يبتسموا عندما يبتسم، وأن يعبسوا عندما يعبس!

وكان - رءوف - لا يجلس إلاّ إذا جلس الآخرون، ولا يأكل إلاّ إذا أكلوا، ولا ينهض إلاّ إذا نهضوا، ولا يسلم إلاّ إذا سلموا... ومع هذا كله كان «دائما» أكثرهم حذرا وأشدهم احتراما لشعوره «دائما» إن فاروق متربص له ليؤاخذه على أقل هفوة وليؤنبه عليها علنا... فكان في جميع حركاته يذكرني بالإنسان الميكانيكي الذي يسيره جهاز أتوماتيكي لا روح فيه ولا عاطفة.

ولم أكن أعرف «رءوف» على حقيقته إلاّ حينما كنت أجتمع به بعيدا عن فاروق فأرى فيه رجلا آخر حتى في نظرته!

وفي يوم الاحتفال بتوثيق قران «الأميرة» فائقة وفؤاد صادق «بك» في قصر القبة كادت تنشأ أزمة «عائلية» بسبب محمد علي رءوف والطربوش!

فقد حدث بعدما تبادل الحاضرون التهاني وشربوا «الشربات» أن استأذن مصوّر القصر من فاروق في تصويره محاطا بشقيقاته الثلاث مع أزواجهن تذكارا لتلك المناسبة العائلية الجميلة... فأذن له... فركّز آلته واستعد.

وإذا فاروق يناديني ويقول غاضبا: لا يمكن «أخذ» هذه الصورة... قل للمصور «بلاش» منها!

فقلت: لماذا يا أفندم؟

فقال محتدا : لأن «حضرته» ـ وأشار إلى رءوف وكان واقفا في الجانب الآخر من القاعة ـ من غير طربوش فلا يمكن أن أظهر أنا وإسماعيل (شيرين) وفؤاد (صادق) بالطرابيش وحضرته «عريان» بالشكل ده!

وكان رأس رءوف من الرءوس التي يصعب تدبير طربوش لها في الحال، فكان من العبث أن أفكر في إقراضه طربوش أحد رجال القصر إنقاذا للموقف وحلا للإشكال.

فقلت لفاروق : إن المناسبة مناسبة سعيدة ، والجميع في سرور وحبور، فأي ملاحظة تبديها جلالتك الآن ستنغص عليهم وتغيّر جو الحفلة وتحول صفوها غما. . . في حين أن الأمر بسيط ولا يستحق أن تغضب له. . . إن الصورة صورة عائلية فلا داع للطرابيش مطلقا. . . إن جلالتك تتصور مع شقيقاتك وأزواجهن بمناسبة زواج إحداهن فمن الطبيعي أن تكون جلسة عائلية ومن الطبيعي ألاّ تكون الطرابيش على الرءوس في هذه الجلسة العائلية. . . أما الصورة التي تصوّر لجلالتك مع العروسين وحدهما فتكون بالطربوش باعتبار أنها الصورة الرسمية. . . ولتمر هذه المناسبة السعيدة بسلام!

ورحمنا الله فهداه ، فاقتنع بهذه النظرية وقال : لولا حرصي على عدم «عكننة» فائقة في هذا اليوم «لعكننت» عليه وعلى أجداده!

وخلع طربوشه ، فخلع إسماعيل شيرين وفؤاد صادق طربوشيهما، وصوّر المصوّر الصورة العائلية!

ثم عاد فلبس الطربوش، فحذا فؤاد صادق حذوه، فصورهما المصوّر الصورة الرسمية ومعهما فائقة العروس!

وفي الغد نشرت الصحف الصورتين معا : العائلية والرسمية.

فقد نسي فاروق عند اطلاعه على الصورة العائلية إشكال الطربوش فسمح بنشرها!

وكان فاروق يراقب بنفسه جميع الصور التي تصوّر له في مختلف المناسبات قبل نشرها في الصحف، ولا يدع هذه المهمة لأحد بحال ما.

وفي هذا ما يفسر لماذا كانت صوره تظهر أحيانا في الجرائد بعد نشر وصف

الحفلات التي صورّت فيها بأربع وعشرين ساعة أو أكثر ، فقد كان لا مندوحة عن عرضها عليه قبل توزيعها ، ولما لم يكن العرض في بعض الأحوال متيسرا في اليوم نفسه كان لابد من إرجائه إلى اليوم التالي .

وكانت له طريقة خاصة في «مراقبة» صوره ، فالصورة التي كانت تعاد إلى المصورّ سليمة من جوانبها الأربعة كانت «صالحة» للنشر ، أما إذا أعيدت إليه وفي أحد جوانبها «قطع» فكان عليه أن يحجبها عن الأنظار وأن يمتنع عن توزيعها على الصحف!

وطالما سئلت كيف كنت أسمح بنشر بعض صوره .

وكان هذا السؤال يوجه إليّ بوجه خاص في الفترة التي طاب له فيها أن يطلق لحيته .

وفي كل مرة كنت أجيب بأنه هو الذي «يراجع» صوره بنفسه وأنه هو الذي يختار بيده ما ينشر منها!

وفي كل مرة لم يكن أحد يصدقني!

وكنت أعذرهم . . . فقد كانوا لا يعرفون «فاروق» !

وكانوا لا يعرفون أنه يقول إنه يراعي في الصور التي يوافق على نشرها «اعتبارات معينة» . . . وإنه ليس هناك من يستطيع تقدير هذه «الاعتبارات» سواه . . . ولذلك لا يمكنه أن يعهد في هذه المهمة إلى أحد!

الفصل التاسع

... وانكشف السر

بعد قدوم فوزية من طهران بمدة قصيرة اجتمعت في حفلة خاصة أقامها فاروق بشاب لم أره في مجلسه قبلا .

ولما ذكروا لي اسمه ، وعرفت من هو ، استغربت وجوده بيننا ، فقد كانت دعوات فاروق الخاصة لاتشمل سوى عدد قليل من أصدقائه الخصوصيين ، ولم أكن قد سمعت منه أنه يعرف هذا الشاب ، أو أنه على صلة به .

فكيف دعاه إذن إلى هذه الحفلة الخاصة؟ ولماذا دعاه إليها؟

وبينما كنت أفكر في ذلك ، وأحاول عبثا أن أجد لهذه الدعوة المفاجئة تعليلا ، استوقف نظري ما زادني حيرة واستغرابا : فقد رأيت فاروق يعامله معاملة تنم عن الود والتقدير ، ويكثر من توجيه الكلام إليه والضحك معه . . . كأنهما صديقان قديمان!

ولاحظت من جهة أخرى أن الشاب يكلمه بجرأة من له دلالة عليه ، ويتصرف كأنه في مجلس اعتاد أن يدعى إليه!

فما معنى هذا كله؟

وتتبعت أحاديثه وراقبت حركاته ، فحلّ الذهول محل الاستغراب ، فقد كان كل شيء فيها يناقض ما كان فاروق يحب أن يراعيه جلساؤه في أحاديثهم وحركاتهم . . ومع ذلك رأيت فاروق مقبلا عليه ، غير متبرم بمسلكه!

فما هذا اللغز؟

ولماذا لا يحدثني فاروق عن هذا الشاب وعن علاقته به على نحو ما كان يفعل حينما كنت أصادف في مجلسه ضيفا جديدا لا أعرفه من قبل ؟!

بل كثيرا ما كان يقول لي : «ستلقى عندي غدا ضيفا جديدا وهو فلان» ثم يحدثني عنه وعن الباعث له على دعوته.

فلماذا عدل عن ذلك هذه المرة؟

وكانت تلك الأسئلة جميعا تتزاحم في رأسي حين التقطت أذني عبارة قيلت على مقربة مني وفهمت منها أن الضيف الجديد قادم من طهران!

وقديما قال أجدادنا : إذا عرف السبب بطل العجب!

وشعرت فجأة بأني كنت في سبات عميق فاستيقظت منه.

واتجه تفكيري فورا إلى التقارير السرية التي تلقاها فاروق من طهران!

لماذا ؟ . . . لا أدري!

إن العبارة التي استرقها سمعي لم تقل أكثر من أن الضيف الجديد قادم من طهران.

ولكن «قادم من طهران» زائد دعوة مفاجئة إلى حفلة خاصة. . . زائد رعاية خاصة من جانب الداعي. . . زائد دلال ظاهر من جانب المدعو. . . زائد عدم إخباري بعلاقة فاروق بضيفه. . . زائد ما سمعته من فاروق عن مصدر معلوماته. . . كل ذلك مجتمعا هو الذي حرك ذهني حتما ووجهه نحو التفكير في التقارير السرية التي جاءت من إيران!

ولم أكن أدري أنني أمام رواية جديدة.

وفي خلال الحفلة شاهدت الضيف الجديد يدنو من الإمبراطورة ويجلس بجوارها جلسة ليس فيها ما يجب عليه لجلالتها من توقير ، وكانت فوزية في ذلك الحين لاتزال تلقب بجلالة الإمبراطورة فضلا عن أنها شقيقة الملك، وأن الملك موجود في الحفلة!

ثم رأيته يحادث فوزية بكيفية لا تدع مجالا للشك في أنه يعرفها، وكانت هي من جهتها تصغي إليه إصغاءها إلى رجل عرفته، وألفت حديثه، وكانت ترد عليه أحيانا، وتبتسم أحيانا أخرى، ولولا معرفة سابقة بينهما لكان من المحال أن تتحرك شفتاها بكلمة. . . أو ابتسامة!

وبعد قليل، استبان لي مما ترامى إليّ من حديثهما أن معرفتهما قديمة فعلا، وأنها نشأت في طهران!

ولاحظت أن «فاروق» لم يبد ما يدل على عدم ارتياحه إلى جلوس ضيفه بجانب شقيقته وتكلمه معها. . . بل على عكس ذلك لاح لي أنه يتتبع ما يدور بينهما راضيا.

ولما عدت إلى الفندق في تلك الليلة أبيت أن أستسلم للنعاس، وأخذت أعرض «الشريط» الذي سجلته ذاكرتي لما استرعى انتباهي من مشاهدات وما اقترن به بعضها من ملاحظات.

ثم جعلت أناقش نفسي بنفسي فقلت: إذا كان ظني في محله، وكان للشاب الذي قابلته صلة بالتقارير السرية التي وصلت من طهران، فكيف يرحب به فاروق، وكيف يعطف عليه ويصطفيه، بعدما اتضح له كذب ما انطوت عليه تلك التقارير من معلومات وروايات؟!

ألم يقل لي فاروق نفسه بعد وصول تلك التقارير إليه إنه إذا ثبت له عدم صحتها فالمسئول عنها لن يفلت من غضبه. . . فكيف يمكن التوفيق بين هذا القول وما تجلى لي في السهرة التي أنا عائد منها؟!

أفهم أن يتجاهل فاروق المسئول عن التقارير وأن يغض الطرف عنه، وأفهم أن يتناسى ما توعده به، وأفهم أن يكتفي بنبذه وقطع كل صلة به. . . وإنما لا أفهم مطلقا أن يدعوه إلى مجلسه، وأن يحيطه بعطفه، وأن يجمعه بشقيقته!

إذن ماذا؟

وهنا قلت: ولكن هل نسيت أن فاروق قرر وجوب تطليق فوزية من الشاه وأنه لا يستطيع أن يسير في هذه الخطة إلاّ إذا كانت التقارير «صحيحة»؟! إنه يعلم أن ماتضمنته التقارير إفك وبهتان، ولكن في اللحظة التي يعترف بذلك تسقط حجته في ضرورة استتمام الطلاق. . . ولذلك تراه مضطرا إلى اعتناق ما زعمته التقارير والتظاهر بأنه متحقق من صحتها. . . ألم يقل لك إن التقارير صحيحة في جملتها وإن الأسرار التي ائتمنته عليها فوزية تؤيدها وتعززها؟!

ومضيت في مناقشة نفسي بنفسي، فقلت: هذا صحيح، ولكن ما الذي يدعوه إلى الإبقاء على علاقته بهذا الشاب بعد ما وضح له أنه غير جدير بثقته؟

فكان الرد الذي وجدته لهذا السؤال هو أنه إذا كان للضيف الجديد في التقارير المذكورة فمن الطبيعي أن يتمسك بصحة ما رواه فيها، وجل ما هنالك أنه فيما يتعلق بالناحية العصبية سيزعم أن ابتعاد فوزية عن إيران أفادها صحيا ونفسيا وأنقذها مما كان يهددها، أما فيما عدا ذلك فسيصر على كل ما أورده في تقاريره... وحيث إن فاروق «يريد» أن تكون هذه التقارير صحيحة؛ لأن «صحتها» تخدم غرضه وتنيله بغيته فمن مصلحته أن يتظاهر بأنه واثق بصاحبها، مصدق لروايته!

ثم قلت لنفسي في تعزيز هذا الرأي: لقد منعنا فاروق من التكلم في كل موضوع قد يذكّر فوزية بإيران وبما خلفته فيها، وأحاطها بحصار محكم الجوانب ليحول دون تسرب أخبار إيران إليها، فكيف يستقيم ذلك مع سماحه للشاب القادم من طهران بالاجتماع بها والتكلم معها... إلاّ إذا كان مطمئنا إلى أن حديث هذا الشاب يساير رغبته ويتفق مع خطته... ومن غير المعقول ألاّ يكون حديثه كذلك لأنه من غير المعقول ألاّ يكون حديثه مطابقا لروح التقارير والأسس التي بنيت عليها!

وتخيلت في تلك اللحظة أنه لما وصل هذا الشاب إلى مصر استدعاه الرجل رقم٢ في فاروق وقال له: إني أشكرك على ما بذلت من مجهود في التقارير التي جاءتني.. وإن كنت قد بالغت في وصف بعض الأمور... ولكن الحمد لله على نجاحنا في إنقاذ فوزية في الوقت الملائم!

فقال له الشاب: أؤكد لجلالتك أن ما ذكرته التقارير هو الذي كان حادثًا، وأنه لولا حزم جلالتك لساءت العاقبة من نواح كثيرة.

فقال له الرجل رقم ٢ في فاروق: أنا متأكد من ذلك... ولهذا سأجمعك بفوزية لتحدثها عن الأخطار التي كانت تهددها... فإني لم أشأ أن أجرح شعورها بترديد بعض ما جاء في التقارير على علاته فرويته لها بشكل آخر... أما أنت فيمكنك أن تقول لها كل شيء!

وخرجت من تفكيري بأن هذا هو التفسير الوحيد الذي يمكنني أن أفسر به ما سجله ذهني في تلك الليلة من مشاهدات وملاحظات.

وزادتني الأيام التالية ميلا إلى الأخذ بهذا التفسير، إذ كنت ألقى الشاب نفسه في كل مناسبة يدعوني إليها فاروق وتكون فوزية في طليعة المدعوين إليها . . . وفي كل مرة كان يتعمد أن يجلس بالقرب من فوزية فترة غير قصيرة وأن يحادثها بصوت خافت لا يسمعه أحد . . . بينما فاروق يراقب جلستهما مع تظاهره بانشغاله عنهما!

وسألت نفسي يوما : ولكن ماذا يجني هذا الشاب من «مجهوده» وماذا يكسب من هذه التمثيلية؟

وكان أقرب رد طبيعي على هذا السؤال: أنه يرجو أن يقدر الملك خدمته وإخلاصه فيحبوه بعطفه ورضائه ويكافئه بتعيينه في منصب يطمع في نفوذه ومرتبه.

ولكن هنا قلت : لو كانت التقارير صحيحة وصادقة لسلمت بهذا الرد.

أما وقد عرفنا أن التقارير غير صحيحة وغير صادقة فهل نقنع به ونعده ردا شافيا؟

أم أسأل السؤال الذي خطر لي مرارا وهو : ما الباعث الذي أوحى بتلك التقارير في الأصل؟

ولاجدال في أنه لو كانت معلومات التقارير ووقائعها صحيحة وصادقة لما كان هناك محل لهذا السؤال.

أما وهي ليست كذلك فالسؤال يكون في محله، بل هو في هذه الحالة سؤال تحتمه الظنون والشكوك، وما أكثر الظنون والشكوك في حياة القصور!

وأبى عقلي أن يصدق أن تلك التقارير اختلقت لتكون وسيلة لنيل وظيفة ، فالمجازفة التي جازفها صاحبها كانت كبيرة وخطيرة، ولما أقدم عليها لم يكن في حسابه أن فاروق سيعتنق فكرة طلاق فوزية لأسباب أخرى، بل كان عليه أن يتوقع احتمالا طبيعيا وهو أن يحقق فاروق محتويات تقاريره . . . وأن يكتشف أنها تجافي الحقيقة فيناصبه العداء ويصب عليه جام غضبه!

فالذي يجرؤ إذن على مجازفة كهذه، ويتجاسر عليها ، لا يلج هذا السبيل المحفوف بالأخطار لأجل وظيفة، بل لابد أن يكون الدافع له سبب قوي

جدا حتى ينحرف عن جادة الحكمة والسلامة وحتى ينزلق بملء اختياره في هذا الطريق المخوف!

وسيطر عليّ هذا الاعتقاد لدرجة أنني كنت كلما بصرت بهذا الشاب في حفلات فاروق الخاصة لا أتمالك عن سؤال نفسي: ترى ما الذي حرّضه فأفقده صوابه، وزين له هذه المغامرة التي تلقفها فاروق، فانقلبت إلي مؤامرة؟!

وفي ذات ليلة اكتشف السر. . . السر الذي كان وراء جميع تلك الأحداث. وأدى إلى نشوء المؤامرة التي انتهت بطلاق فوزية من الشاه!

وكان السر أمامي منذ لقيت الضيف الجديد في مجلس فاروق أول مرة!

وكان أمامي في مناسبات متعددة تعاقبت بعد ذلك!

ولكني لم أره!!

وكلما رجعت بالذاكرة إلى تلك المناسبات أدهشني كيف أن بعض ما شاهدته فيها لم يهدني إلى هذا السر من بادئ الأمر! . . . غير أن هذا هو الذي حدث!!

إلى أن كانت الليلة فاكتشفت عيناي وأذناي السر في لحظة واحدة.

وكنا نقضي السهرة في ضيافة فاروق في أحد الفنادق الكبيرة بالإسكندرية.

ونهض فاروق يراقص صديقته بعدما رقص مع شقيقته جريا على عادته التي أشرت إليها قبلا.

وفجأة لمحت الشاب الذي نحن بصدده يقبض على يد فوزية وهو يهم بالوقوف ويقول لها بالفرنسية: هيا بنا نرقص!

ونهضت فوزية وسارت معه إلى حلبة الرقص. . . ولكني تبينت في وجهها أنها نهضت محرجة. . . وأكاد أقول: مرغمة!

ولم أر في مسلكه لأول وهلة إلاّ وقاحة وسماجة، واستنكرت أن تسكره حظوته عند فاروق فيغفل آداب المجتمع في كيفية معاملة السيدات وفي طريقة دعوتهن إلى الرقص. . . فضلا عن أن السيدة التي تصرف نحوها هذا التصرف الشاذ ذات مقام خاص!

أجل ، شق عليّ أن يجذب الإمبراطورة من يدها ، وأن يقول لشقيقة الملك «هيا بنا نرقص» كأنهما ولدان صغيران . . . أو خطيبان متحابان لا يقيد غرامهما قيد!

وما كاد هذا الخاطر يمر بذهني حتى فتحت فاهي مشدوها كأن أحدا أيقظني بضربة فاجأني بها على رأسي . . . وفي تلك اللحظة تكشف لي السر الذي كنت أبحث عنه!

ولكني أيقنت أنه مشروع من «جانب واحد» . . . وأن فوزية غير مشتركة فيه!

ولما استيقظت على فراشي في تلك الليلة أخذت أستعرض في ذهني عدة «مشاهدات» . استوقفت نظري في حفلات سابقة ومع ذلك لم أعرها اهتماما خاصًا لعدم اتجاه تفكيري إلى ما شاءت المقادير أن توجهه إليه اليوم . . . ولما انتهيت من تقليب تلك المشاهدات على جميع وجوهها قررت أن أطلب مقابلة فاروق في الغد!

ثم نمت .

وكأنما أنبأه قلبه بأنني سأكلمه عن الشاب الذي شغلنا بحركاته ، فلما قابلته في اليوم التالي بادرني بعد التحية بقوله : ما رأيك في سهرة أمس؟ أظن أنها كانت لطيفة . . . وعلى فكرة . . إنك لم تقل لي بعد رأيك في صديقنا فلان ، وقد فاتني أن أسألك عن ذلك مع أنني كنت أريد أن أسألك هذا السؤال من أول مرة شاهدته فيها معنا . . . ألا ترى أنه ذكي ومثقف . . . أنا يعجبني فيه بوجه خاص طموحه ونشاطه وشجاعته في إبداء آرائه والدفاع عنها . . . وهو زيادة على ذلك شديد الإخلاص لي ومستعد لكل تضحية في سبيلي!

فلم أعلق على هذه «الشهادة» بكلمة واحدة ، وقلت بهدوء : لقد التمست هذه المقابلة لأتكلم مع جلالتك بشأنه .

وأدرك من عدم تعقيبي على قوله ، ومن لهجة كلامي أن ما أنوي مكاشفته به لا يزكي ما أفضى به إليّ ، فقال بشيء من التململ : خيرا إن شاء الله ؟

فقلت : يلوح لي أنه كان له يد طولى في التقارير التي تلقيتها جلالتك من طهران .

فضحك وقاطعني قائلا: أنا أعلم أنك تتوق من زمان طويل إلى معرفة مصدر هذه التقارير . . . وأن الناحية الصحفية فيك لن تهدأ حتى تعرفه!

فقلت: أؤكد لجلالتك أن ذلك ليس قصدي وأنني لم أحضر اليوم مستطلعا وإنما حضرت مخبرا، ولست أطمع في أكثر من أن تصغي إليّ، فإني أشعر منذ أمس مساء بأن على قلبي حملا وأنني لن أستريح منه حتى أطلع مولانا على ما يقلقني!

فقال مرة أخرى: خيرا إن شاء الله؟

فقلت: أعود فأكرر ما ذكرته وهو أنه يبدو لي أنه كان لصاحبنا يد طولى في تلك التقارير . . . وبدون أن أتعرض للاعتبارات التي بنيت عليها جلالتك قرار وجوب طلاق الإمبراطورة أرجو أن تسمح لي بأن أقول مرة أخرى إنه ثبت لنا أن مضمون التقارير كان غير صحيح!

فقاطعني محتدا وقال: كيف كان غير صحيح؟ ألم أقل لك بعد حديث فوزية معي أن معظمه صحيح!

فقلت: على كل حال إن غرضي من هذه المقدمة هو أن أصل إلى سؤال جلالتك هل خطر لك أن تفكر في الباعث الذي بعثه على موافاتك بتلك التقارير؟

فقال: قلت لي إنك جئتني اليوم مخبرا لا مستطلعا، فإذا أنت الآن توجه إليّ سؤالا وسؤالا ملتويا!

وابتسم ابتسامة المعجب بفطنته، ثم قال: ولكن لماذا هذا السؤال؟

فقلت: لأن الرد عليه يفضح السر!

فقال: أي سر؟

فقلت: السر الذي من أجله «صنعت» تلك التقارير!

فقال: لماذا لا تفصح حالا بدلا من كل هذا «اللف والدوران»!

فقلت: لأن ما سأفاجئ به مولانا سيذهله!

فنظر إليّ مبهوتا.

فقلت: إن صاحب التقارير يطمع في أن تكون فوزية زوجة له يوما ما.

فقال بدون ترو : فوزية من ؟

فقلت : فوزية الإمبراطورة . . . شقيقة جلالتك!

فقال: لاشك عندي في أنك «تخرف»!

فقلت : أرجو أن يكون الأمر كذلك!

فقال: هل لك أن تخبرني من أين جئت بهذه الأسطورة؟

فسردت له جميع ما عندي، فأهمه واغتم له، فقلت : إني متأسف لإزعاج جلالتك بما أتيتك به وأرجو أن أكون مخطئا في تقديري.

فقال: لا تأسف. . . أنت تعلم أنني شجعتك دائما على مصارحتي بكل ما ترى من الواجب عليك أن تصارحني به. . . سأحقق في الموضوع وأتحرى الحقيقة. . . وإنما دعني أؤكد لك من الآن أنك مخطئ وأن الوهم تسلّط عليك. . . أنا أجاريك في أن بعض تصرفات فلان تستحق المؤاخذة. . . ولكنها رعونة لا أكثر. . . وليس من المعقول أن يفكر لحظة واحدة فيما صوّره لك الوهم. . . وعلى كل حال سأبحث وأتحرى!

وعدت فقابلت الشاب نفسه مرتين أخريين في دعوتين متتاليتين ، فلم أر في حركاته تغييرا، بل زادني موقفه من فوزية تأكيدا.

ورابني سكوت فاروق ، ولم أجد له تعليلا.

غير أنه لم ينقض على الدعوة الثانية يومان حتى قال لي أحد المحيطين بفاروق: هل بلغك الخبر؟

فقلت : أي خبر؟

فقال : فلان. . . وذكر اسم الشاب.

فقلت : لم أسمع شيئا، فماذا حدث له؟

فقال : أصدر مولانا اليوم أمرا بعدم دعوته في المستقبل؛ لأنه لا يريد أن يراه في مجلسه بعد الآن!

فقلت : وهل عرفت سبب ذلك؟

فقال: لا أخفي عليك أن هذا التحول الفجائي أدهشنا فأردنا أن نعرف سببه ولكن مولانا لم يتكلم ولم يقل سوى «يظهر أن هذا الولد قد ركب رأسه»!

أما فاروق فلم يحدثني في أمره.

وفي هذه المرة لم يتعذر عليّ تعليل سر سكوته!

وحاول صاحبنا أن يشق طريقه إلى مجلس فاروق مرة أخرى فباءت محاولاته بالفشل!

وطويت صفحته.

ولكن الشر الذي خلقته تقاريره لم يُطْوَ معه!

الفصل العاشر

طلاق بالجملة

وفي تلك الأثناء كانت الاتصالات تجري في طهران للاتفاق على الطلاق.

ولما كوشف جلالة الشاه بموضوعه قال إن دهشته عظيمة . . . فهو يحب زوجته، وزوجته تحبه والعلاقات بينهما على ما يرام. . . فما الذي طرأ؟!

وبعد مفاوضات طويلة تعددت في خلالها مقابلات سفير مصر للشاه وافق جلالته على الطلاق!

وقد أبدى الشاه في جميع مراحل المفاوضات نبلا وكرما عظيمين، وكانت مهمة سفير مصر شاقة ودقيقة فعالجها بكفاءة ولباقة كبيرتين.

ورضي جلالته أن تحتفظ فوزية بجميع المجوهرات التي أهداها إليها في مناسبات مختلفة!

وبعدما اتفق الجانبان على الطلاق، واستعد الشاه لإعلانه، أبلغوه رغبة «أخوية» لفاروق وهي أن يرجئ الإعلان قليلا.

وقال فاروق إنه سينفذ قريبا مشروع طلاقه من فريدة فيود أن يعلن «الطلاقان» في مصر في وقت واحد! . . . فلم ير الشاه مانعا من تحقيق رغبته.

وامتد تأجيل الإعلان من شهر إلى آخر، والشاه صابر على هذا الوضع العجيب!

وفي كل شهر كان يقال له : بعد أسبوعين.

وأخيرا طلق فاروق فريدة، فأذيع نبأ طلاقهما ونبأ طلاق الشاه وفوزية في وقت واحد!

واعتقد فاروق أن إذاعة النبأين سويا سيساعد على تلطيف الجو في مصر، فكانت النتيجة أن تشاغل الناس عن طلاق الشاه بالتعليق على طلاق فاروق وحده!

واستمرت فوزية بعد إعلان طلاقها تقيم في قصر القبة .

واستردت لقبها القديم الذي كانت تعرف به قبل زواجها .

وقرر فاروق بعد انقضاء فترة قصيرة على طلاقه أن تقوم «سموها» مقام الملكة وأن تنهض بمهام السيدة الأولى في البلاد إلى أن يتزوج مرة أخرى!

وكانت شقيقتها فائزة تشترك معها أحيانا في الترحيب بضيوفها ، أو تنوب عنها في بعض الحفلات إذا اعتذرت عن عدم حضورها لوعكة طرأت عليها . . . وكانت فوزية تكره الاستقبالات والحفلات الرسمية وترحب بكل طارئ يحول دون تمكنها من الاشتراك فيها!

ولما حلّ عيد ميلاد فريال لأول مرة بعد طلاق والديها أقام لها فاروق في قصر القبة حفلة شاي عائلية على غرار الحفلة التي كانت أمها تنظمها لها . . . فكانت أول مرة حلّت فيها فوزية محل فريدة في حفلة عائلية من هذا النوع . . . ولم تنجح الابتسامة الصغيرة التي كانت ترتسم على فمها ثم تختفي بسرعة البرق في إخفاء ما كانت عليه في ذلك اليوم من وجوم وقلق . . . وقد خيّل إليّ طول الوقت أنها كانت تفكر في ابنتها وفيمن سيجلس إلى جانبها عندما ستحتفل بعيد ميلادها!

ولما وافق فاروق على ذهاب فريال وفوزية إلى دار الأوبرا أول مرة لمشاهدة تمثيل إحدى الروايات الفرنسية «الكلاسيكية» طلب إلى فوزية أن تكون في صحبتهما مع مربيتهما .

وكذلك صحبتهما فوزية في أول زيارة لـ « حديقة الحيوان» .

وبالاختصار أصبحت تقوم مقام سيدة القصر في جميع المناسبات الرسمية والعائلية!

غير أنه لم يمض على إعلان طلاقها أمد قصير حتى أخذت معاملة فاروق لها تتحول تحولا ملحوظا!

ففي داخل القصر قلل من اجتماعه بها ، ولم يعد يدعوها إلى مائدته إلاّ في فترات غير متقاربة .

وفي خارج القصر كف عن استصحابها معه إلى الأماكن العامة إلاّ في القليل النادر .

وبعد ما كان يحيطها بجميع مظاهر العناية والرعاية صرنا نسمعه يوجه إليها الملاحظات علنًا فتقبلها صاغرة في صمت وطاعة.

وأبطل الإشارة إليها بقوله «شقيقتي» فإذا تكلم عنها قال «فوزية» أو «فوزية الكبيرة» تمييزا لها عن فوزية الصغيرة... ابنته الثانية.

وأصبحت معظم اتصالاتهما تتم بواسطة وصيفتها وعن طريقها!

وذهبت إليه يوما لعمل، فما كدت أدخل الجناح الخاص به حتى سمعته يصيح غاضبا: هو ده كلام معقول؟ ١٤ ألف جنيه ثمن فساتين... ده شيء يجنن ويطيّر العقل!

ولم أعلم في بادئ الأمر لمن يقول ذلك... أو عمن يقول ذلك.

ولكن لما سمعته يقول: «أنت فاكره عندك كم ١٤ ألف جنيه... أنت يظهر عاوزه تعيشي باقي حياتك فقيرة!» أدركت أنه يخاطب شقيقته فوزية وخصوصا أنني لم أسمع ردا على كلامه!

وخطوت خطوتين أخريين إلى الأمام فلمحته قادما من الباب الذي يفصل بين الجناح الخاص به «والحرملك» فقدرت أن فوزية كانت واقفة معه بالقرب من الباب من الجهة الأخرى فتواريت عن نظره خوفا من أن يقول لي شيئا عنها على مسمع منها، وحسبها الذين سمعوا صياحه من خدمه وخدمها!

وأراد بعض خدمه أن يهدئوا من ثورة غضبه فأعلموه بقدومي، فما رآني حتى انفجر مرة أخرى قائلا: اسمع يا سيدي الأخبار... فقد عرفت اليوم أن فوزية اشترت في أقل من سنة واحدة فساتين بأربعة عشر ألف جنيه... أيوه يا سيدي فساتين بس بـ ١٤ ألف جنيه!... ولولا الصدفة لما عرفت ذلك في وقته ولاستمرت في هذا الإسراف... فهل تتصور ذلك وهل تصدقه؟... فساتين بـ١٤ ألف جنيه في أقل من سنة مع كل الفساتين اللي كانت عندها... ليه وعلشان إيه؟ علشان شوية عشوات وسهرات تقوم تصرف ١٤ ألف جنيه ثمن فساتين بس... إنت مش شايف إن دي حاجة تجنن؟!... هي عندها كم ١٤ ألف جنيه... مش كفاية أختها فائزة!... لا هي كمان... علشان يجي يوم ما يلاقوش مصروفهم وتعال يا فاروق ساعدنا... كأنه أنا ناقص مصاريف والتزامات... وكأن أنا ما عنديش ثلاث بنات لازم أصرف عليهم لما يكبروا...

قال ١٤ ألف جنيه فساتين في السنة . . . وفساتين بس ! . . . شوف بقى حاجات ثانية بكام . . . ومصاريف بكام . . . بكره يطلع الحساب ٢٤ ألف جنيه . . . حاجة حلوة . . . حاجة تجنن صحيح !

فقلت : هوّن عليك يا مولانا ، وما دمت قد نبهـ . . .

فقاطعني قائلا : بس أهوّن على نفسي إزاي؟ . . . يعني أنت موافق على الشغل ده؟ !

فقلت : اللي فات فات وما دمت جلالتك قد نبهتها إلى الأمر فلابد أنها ستمسك يدها من الآن فصاعدا !

فقال : أنا أحب المعقول وما عنديش مانع تصرف على ملابسها ولكن مش بالطريقة دي ! . . . وإلاّ حتروح فين بعدين؟

فقدمت وقلت له : لابد أنها ستراعي ذلك في المستقبل .

فقال : لما نشوف !

ولما أنجزت عملي معه رجعت إلى بيتي ، ولكن قبل أن أخلع ملابسي دق جرس التليفون ، وإذا «الشمشرجي النوبتجي» يبلغني أن جلالته يروم أن أذهب إليه ثانية .

وعند دخولي عليه قال لي : لم أكن أود أن أتعبك مرة أخرى . . . غير أن تفكيري في فوزية وفي مستقبلها لم ينقطع منذ انصرافك . . . ألا تعتقد أن من الأفضل أن تتزوج بسرعة؟ !

فقلت : إن الأمر يتوقف على شعورها هي أولا . . . وعلى كل حال لابد من الانتظار قليلا ريثما ينقضي على الطلاق الوقت «اللائق» .

فقال : طبعا . طبعا . . . هذا أمر مفهوم . . . ولكني أرى أن نهتم بهذا الموضوع من الآن . . . فنبحث عن الشاب الذي يلائمها ونضع العين عليه حتى إذا حان الوقت المناسب لزواجها لم نضيّع الوقت بالبحث عنه !

فكررت قولي : هذا يتوقف على شعورها هي أولا كما قلت لجلالتك .

فقال : ليس من المعقول ولا من الحكمة أن تظل بدون زواج . . . ثم إن الزواج سيسليها ويلهيها بشئون بيتها لأني أنا لا أستطيع أن أستمر في إعطائها الوقت الذي أعطيها إياه منذ قدومها إلى مصر . . . إن أشغالي وظروفي لاتسمح لي بذلك . ومن

جهة أخرى فإنها لن يتيسر لها أن تقيم في قصر القبة إلى الأبد إذ لابد أن يأتي يوم أتزوج فيه مرة أخرى، فماذا يكون مركزها في القصر عندئذ؟ . . . فأنت ترى إذن لماذا يتعين عليها أن تتزوج؟ وهذا فضلا عن أنني أعتقد أنها هي نفسها لاتميل إلى العيش من غير زواج . . . فعلينا والحالة هذه أن نتدبر الأمر من الآن وأن نبحث لها عن العريس الذي يليق بها . . . ففكر في ذلك من ناحيتك وسأفكر أنا فيه من ناحيتي كذلك . . . وسأطلب إلى بعض الأصدقاء أن يضموا تفكيرهم إلى تفكيرنا . . . فإني أريد لفوزية السعادة والهناء كما تعلم!

وبعد أيام، قال لي فاروق: هل فكرت في الشاب الذي يصلح لأن يكون زوجا لفوزية؟

فقلت: لم أحسب أن جلالتك تتوخى هذه السرعة.

فقال: كنت متوقعا هذا الرد . . . وهكذا لابد لي من التفكير في كل شيء بنفسي . . . وقد أجابني الآخرون بما أجبتني به أنت . . . فلو اعتمدت عليكم لما تقدمنا خطوة واحدة . . . ولكني لم أعتمد عليكم، وفكرت في الموضوع لوحدي . . . وقد هداني التفكير إلى الشاب الذي يلائمها . . . ومن المحقق أنك تحب أن تعرف من هو!

فقلت: إذا سمحت جلالتك بذلك.

فقال: إسماعيل . . . إسماعيل شيرين . . . ما رأيك فيه؟

فقلت: لاريب أنه اختيار موفق من جميع الوجوه.

فقال: الحمد لله.

فقلت: ولكن ما رأي الأميرة فوزية فيه؟

فقال: لم أسألها رأيها فيه لأنها في استحيائها لن تقول لي شيئا . . . وإن تكلمت فستقول إنها تترك الأمر لتقديري . . . ولذلك لن أكلمها في هذا الموضوع ولن أكلم إسماعيل شيرين بل سأنتهج خطة أخرى!

وخفت أن أسأله عن خطته فيتبادر إلى ظنه أنني لا أستطيع أن أعيش من غير أن أطلع عليها . . . ولما تبين له أنني غير متلهف على الوقوف عليها قال من تلقاء نفسه: وتتلخص هذه الخطة في أنني سأبدأ قريبا بدعوة إسماعيل شيرين إلى

حفلاتي ومآدبي الخاصة لكي يتاح له ولفوزية أن يعرف كل منهما الآخر . . . وبعد كده هو وشطارته . . . فإذا نجح في كسب قلبها زكيت زواجهما وباركته . . . ولعلك أدركت أنني لا أبغي أن أفرضه عليها فرضا فإن حبي لها أعظم من أن أسمح بفرض زوج معين عليها!

ثم قال معقبا على عبارته الأخيرة: ولكني واثق من أنها ستميل إليه!

وهنا ابتسم وقال : ولاسيما أن مجال الاختيار ليس واسعا أمامها فإن معظم الرجال الذين أدعوهم متزوجون. . . والذين ليسوا متزوجين تنقصهم مؤهلات إسماعيل شيرين!

وبحثت في ذهني عن العبارات التقليدية التي تقال في مثل هذه المناسبة فلم أوفق إلى أكثر من قولي إن الأميرة فوزية تستاهل كل خير وسعادة.

فقال : إن إسماعيل شيرين ملائم ومناسب من جميع الوجوه. . . ووالدته أميرة ومن العائلة . . . ولكن من الأسف أن هنا شيئا ضده!

وأذهلتني هذه المفاجأة غير المنتظرة، فقلت بصوت ينم على الحيرة: خيرا إن شاء الله؟!

فقال : إني أقدّره ولكني لا أحبه!

ثم شفع ذلك بقوله : أحيانا.

فقلت : ماذا تقصد جلالتك بقولك إنك لا تحبه. . . أحيانا!

فاعتدل في جلسته وهمّ بالرد عليّ.

وفي تلك اللحظة دخل علينا «الشمشرجي النوبتجي» وقال له إن موعد المقابلات الرسمية قد أزف، فالتفت إليّ وقال : سأحدثك عن ذلك في فرصة أخرى لأني مضطر الآن أن أرتدي ملابسي استعدادا للمقابلات.

ولما بلغت باب الحجرة استوقفني قائلا : لاتفسر ما قلته لك بأنني أكره إسماعيل شيرين. . . فكل ما هنالك أنني لا أحبه أحيانا ولا أحب عشرته!

الفصل الحادي عشر

البحث عن عريس

وفي ذات يوم قال لي فاروق : ذكرت لك من أيام أنني لا أحب إسماعيل شيرين أحيانا ولا أحب عشرته . . . ولابد أنك تساءلت عن سبب ذلك . . . والواقع أن إسماعيل كان دائما مخلصا ومطيعا ، ولم يبدر منه ما يغضبني أو ما يدعوني إلى مؤاخذته عليه . . . غير أنني أتضايق أحيانا من غروره ومن غلوه في الاعتداد بنفسه عندما يظهر بهذا الكبرياء ولا أحب عشرته !

فقلت : إني لم أره متكبرا قط .

فقال : أنت لاتعرفه جيدا . . . ولا يمكنك أن تكتشف ما ذكرته لك عنه إلاّ إذا عاشرته واختلطت به !

فقلت : قد يكون اعتزازه بكرامته هو الذي يوهم بأنه معتد بنفسه .

فقال متضايقا : أتريد أن تعرّفني بإسماعيل شيرين . . . ثم إني لم أقل لك إن غيري يرى أنه معتد بنفسه ، بل قلت لك إنني أراه أحيانا مغرورا ومعتدا بنفسه فهل أنا عاجز عن التمييز بين الاعتداد بالنفس والاعتداد بالكرامة ؟ !

فقلت : أستغفر الله يا أفندم .

فقال : ولكني أقدم مصلحة شقيقتي على كل اعتبار مهما كان شعوري نحوه . . . ولا جدال في أنه يلائمها ويناسبها من جميع الوجوه . . . ولذلك سأمضي في خطتي ولا أدع شعوري الشخصي يؤثر في مصلحتها بتاتا !

فقلت : ربنا يتم كل شيء على خير .

فقال : إن شاء الله يتم كل شيء على خير . . . وتنفيذا لخطتي سآمر بدعوة

إسماعيل شيرين إلى تمضية يوم «شم النسيم» معنا في إنشاص ثم أوالى بعد ذلك دعوته في المناسبات التي تحضرها فوزية.

وبعد أيام اجتمع في إنشاص نحو ثلاثين مدعوا ومدعوة من مصريين وأجانب لقضاء «شم النسيم» في ضيافة الملك، وكان إسماعيل شيرين في مقدمتهم فاستقبله فاروق بابتسامة تنم عن اغتباطه بمشاهدته وارتياحه إلى لقائه.

وبدأت الضيافة بفطور «شم النسيم» التقليدي، واشترك فاروق مع ضيوفه في أكل الفسيخ والفول المدمس والبصل الأخضر وهو جذل بادي الانشراح فحمدوا الله على ذلك وسألوه أن يمر اليوم كله في هذا الصفاء.

وبعدما أفطر المدعوون انتشروا في أرجاء المكان جماعات... جماعة ترقص على أنغام الموسيقى، وجماعة تتسلى بلعب الورق، وجماعة «تقتل الوقت» بتجاذب أطراف الحديث، وجماعة يقاوم أفرادها الضجر بالتنقل بين الموائد ريثما يحل موعد «الإبرتيف».

وكانت قهقهة فاروق تسمع من جميع الجوانب معلنة أن لا شيء يعكر صفو مزاجه وأنه في حالة مرح وانشراح!

وفجأة... حانت منه التفاتة نحو حمام السباحة... فبصر بأحد ضيوفه في داخل الماء... وقبل أن يرتد إليه بصره امتقع وجهه وارتسمت عليه أمارات الانفعال... وصاح في غضب شديد قائلا: من الذي يعوم هناك؟

فقيل له إنه إسماعيل شيرين... فأوفد إليه أحد رجاله ليبلغه وجوب الخروج من الماء حالا، فنفذ الرسول أمره، وامتثل له إسماعيل شيرين طبعا!

وعجب الضيوف الجدد لهذا التصرف من جانب الملك... أما القدامى منهم فلم يروا فيه عجبا، فقد كانوا يعرفون فاروق ويعرفون كثيرا من أطواره ونزواته!

وكان هواة السباحة ومحبو الظهور بملابس الاستحمام قد جلبوا معهم هذه الملابس بالإيعاز ليقضوا بعض الوقت في ذلك الحمام البديع الذي تسلط عليه الشمس أشعتها من كل جانب فيتمتع رواده بدفء طبيعي يحبب إليهم ماءه ويدفعهم إليه.

إذن لم يكن نزول إسماعيل شيرين إلى حمام السباحة هو الذي أغضب فاروق.

وإنما أغضبه أن ينزل إليه قبله، أو من غير أن يستأذنه في ذلك!

أما إسماعيل شيرين فلم ير أن نزوله إلى الحمام يقتضي الاستئذان... فقد لاحظ أن كل فريق من المدعوين قد انصرف إلى ما يسليه فظن أن في استطاعته أن يختار لنفسه هذا الضرب من التسلية ولاسيما أنهم أوعزوا إليه بأن يحضر معه ملابس الاستحمام إذا كان يحب أن يستمتع بحمام السباحة... ولذلك لم يخطر له أن يستأذن... فضلا عن أن الدعوة في تلك المناسبة - مناسبة شم النسيم - كانت دعوة خصوصية خالية من المراسم والقيود الرسمية، فلم يشعر أنه مطالب بالتقيد بما يتقيد به في المناسبات الرسمية!

وشق الأمر عليه، فبعدما خرج من الماء وارتدى ملابسه وانزوى قليلا في أحد جوانب المكان أنهى إلى فاروق بواسطة أحد أتباعه أنه يشكو من تعب طارئ ويستأذن في الانصراف، فأذن له ولكن بدون أن يشعره برغبته في توديعه، فانصرف إسماعيل من غير أن يسلم عليه!

وعلى أثر انصرافه قال لي فاروق: أنا أعلم أنني قسوت عليه... وأعلم أنه كان في استطاعتي أن أتغاضى عما بدر منه... أو أن أقول له كلمة لطيفة بعد ذلك... ولكني لم أشأ... فمن الخير أن يدرك في بادئ الأمر أن عطفي لا يسوغ له «الدلع» وأنه كلما ازداد الإنسان قربا مني ازددت شدة في محاسبته على تصرفاته!

وانقضت مدة غير قصيرة قبل أن «يصفح» فاروق «عما بدر» من إسماعيل شيرين يوم شم النسيم!

ثم استأنف دعوته إلى حفلاته ومآدبه الخاصة... واستأنف الابتسام له!

ولم ينقض زمان طويل حتى أدركنا جميعا أن قلبي فوزية وإسماعيل شيرين قد تلاقيا وتفاهما!

وإذا حماسة فاروق لهذا المشروع الذي كان أول من فكر فيه... تفتر!

وإذا نحن نواجه فترة حافلة بالتقلبات... والمفاجآت!

من جانب فاروق طبعا!

فيوما يؤكد لنا أنه نادم على مشروعه. . . وأنه يفكر جديا في إحباطه!

ويوما يثني على أخلاق إسماعيل شيرين ويطري مواظبته على مهام منصبه وحسن اضطلاعه بها!

ويوما يستهجن طريقته في المناقشة ويستنكر تشبثه بآرائه حتى بعدما يظهر له «ضعف أساسها»!

ويوما نراه مقبلا عليه إقبالا يؤذن بأن القران المرتقب قد أضحى حقيقة قائمة!

ويوما يريبنا انحرافه عنه فنتوجس منه خيفة ونخشى سوء العاقبة!

إلى أن فاجأني يوما بقوله : إني أرى أن إسماعيل شيرين لا يستأهل فوزية. . . وأكاد أندم على ما عملت. . . فما قولك في ذلك بصراحة؟

فقلت : مادام مولانا يسألني رأيي بصراحة فليسمح لي بأن أقول له إن إسماعيل شيرين هو الرجل الذي تحتاج إليه امرأة مثل الأميرة فوزية، فاطرح جلالتك الندم واطمئن إلى أن قرارك الأول كان في محله، ثم . . . .

فقاطعني قائلا : إني أصدقك وإن كنت لست مطمئنا كل الاطمئنان. . . ولكن يخيل إليّ أنك كنت تريد أن تقول شيئا آخر فما هو؟

فقلت : أحببت أن أقول إن العلاقة بين إسماعيل وفوزية قد تقدمت لدرجة أن كل تفكير الآن في العدول عن المشروع لا يكون محمود العواقب، وخصوصا بعدما أصبح الناس يتكلمون عن خطبتهما كأمر مفروغ منه لا ينقصه سوى الإعلان الرسمي، وأرجو. . .

ولكن هنا توقفت عن الكلام ولم أمض في العبارة التي بدأتها.

فقال : ترجو ماذا ؟

فقلت : لا شيء.

فقال : كيف لا شيء . . . كنت موشكا أن تقول شيئا ثم عدلت.

فقلت : لا شيء . . . أو بالأحرى شيء لا معنى له.

فقال : قله . . . فقد تعودت أن أسمع منك أشياء كثيرة لا معنى لها (وضحك).

فقلت : أردت أن أقول إنني أرجو أن يذكر مولانا أن الأميرة فوزية هي التي ستتزوج إسماعيل شيرين لا جلالتك.

فضحك وقال : هذا أول شيء له معنى قلته الليلة.

ثم قال : والواقع أن التسويف ليس حكمة!

وفي تلك الليلة قرر وجوب التعجيل بعقد القران!

وما كادت فوزية تتزوج وتغادر قصر القبة حتى فترت علاقات فاروق بها وتساوت بعلاقاته بفائزة!

وقد عرفنا أنه كان يجافي فائزة وزوجها لإسرافهما في نفقاتهما ، وعدم رضائه عن طريقة معيشتهما ، أما فيما يتعلق بفوزية وزوجها فلم نعرف لفتور علاقاته بهما سببا سوى أنه تقلب من تقلبات أطواره ونزواته بالإضافة إلى أنه لم يكن يحب عشرة إسماعيل شيرين!

وبعد زواج فوزية وإسماعيل شيرين تلقى فاروق من شقيقته فائزة أنها تود أن تدعوهما إلى مأدبة عشاء في دارها احتفالا بزواجهما ، وأنها تؤمل أن يشرف هذه المأدبة بحضوره ، وتترك له تعيين موعدها وأسماء الضيوف الذين يدعون إليها.

وكانت فائزة وزوجها قد انتهيا من إعداد دارهما ، وهي دار استأجراها من الحكومة في وسط حديقة «الزهرية» بالجزيرة ، وأنفقا مالا طائلا على إصلاحها وزخرفتها وتأثيثها.

ولم يكن فاروق قد زارفائزة في دارها بعد ، فقبل الدعوة تكريما لفوزية من جهة ، ورغبة منه في مشاهدة الدار من جهة أخرى لما بلغه عن الإسراف الذي أسرفته فائزة على فرشها.

وكنت أحد الاثنى عشر مدعوا الذين أمر فاروق بأن يدعو إلى تلك المأدبة ، وأن تقتصر الدعوة عليهم ، فرحبت بنا فائزة وزوجها أجمل ترحيب وأكرما وفادتنا فرحين بهذه المناسبة السعيدة ، مغتبطين بأن «صاحب الجلالة» سيزورها لأول مرة في بيتهما الجديد!

ولما أقبل فاروق لاحظنا أنه منشرح الخاطر، مرح المزاج، فحمدنا الله على ذلك في إشفاقنا على فائزة وزوجها وكنا جميعا نعرف مقدار سخائه عليهما بالملاحظات المؤلمة كلما خطر له أن يكيل لهما عبارات اللوم والتأنيب!

وقضى الفترة التي سبقت العشاء في حديث مع شقيقته فاغتنم الضيوف هذه الفرصة ودلفوا نحو «البار» حيث تولى محمد علي رءوف توزيع كئوس «الوسكي» بكميات تدل على تقديره للذين يشاطرونه إعجابه به!

وسألت فائزة شقيقها عن الساعة التي يروم أن يتعشى فيها فأجابها بأنه مستعد للأكل فورا، فقالت له إن كل شيء معد ورهن إشارته، فأتم ارتشاف ما في كوبته من عصير البرتقال بينما كان الخدم يفتحون باب قاعة الأكل على مصراعيه.

ولما ألقيت نظرة على المائدة ورأيت أن ما عليها من ألوان الطعام يكفي مائة مدعو توقفت أن يُسمعنا فاروق ملاحظة كفيلة «بسد النفس» . . . ولكنه كان مشغولا بالكلام مع صديقة له فاجتزنا مرحلة العشاء بسلام!

وبعد ما شربنا القهوة في الصالون الكبير قال فاروق لمحمد علي رءوف إنه يريد أن يطوف بسائر أرجاء البيت، فانحنى لهذا التنازل العظيم، وعدّه دليلا على ارتياح جلالته إلى ما شاهده في الجزء المخصص للاستقبال.

غير أنه ما كاد فاروق ينتهي من جولته حتى قال لفائزة وزوجها على مسمع كثيرين من الحاضرين البيت جميل ولكن أرى أنكما أسرفتما إسرافا لا مسوغ له!

فقالت له فائزة بصوت عذب باسمة: أتظن ذلك؟

فقال جادا: طبعا أظن ذلك . . . ففي كل جانب من جوانب البيت مظهر صارخ لهذا الإسراف!

أما محمد علي رءوف فوقف صامتا، وكعادته . . . لم يقل شيئا!

ثم التفت فاروق إلى فوزية، وإسماعيل شيرين وقال لهما: إن شاء الله أراكما أنتما أعقل منهما!

وهنا نظر إلى ساعته وقال إنه مضطر إلى الانصراف مبكرا لارتباطه بموعد آخر!!

وما توارت سيارته عن الأنظار حتى أمسك محمد علي رءوف بذراعي وقال لي بالفرنسية : قل لي بصراحة . . . هل رأيت في هذا البيت ما سماه جلالته مظاهر إسراف وتبذير! . . . وهل يليق بفائزة وهي ابنة الملك فؤاد وشقيقة الملك فاروق أن تعيش عيشة أقل من هذه !

واستأنفنا هذا الحديث في «البار» .

وفجأة سمعته يقول كمن يخاطب نفسه : وعلى كل حال فمن الأفضل أن ننعم بهذا المال قبل أن تلتهمه الثورة!

وفي تلك الجلسة أسَرَّ إليّ زوج فائزة أنه مؤمن بأن الثورة قادمة لا محالة !

الفهـــرس

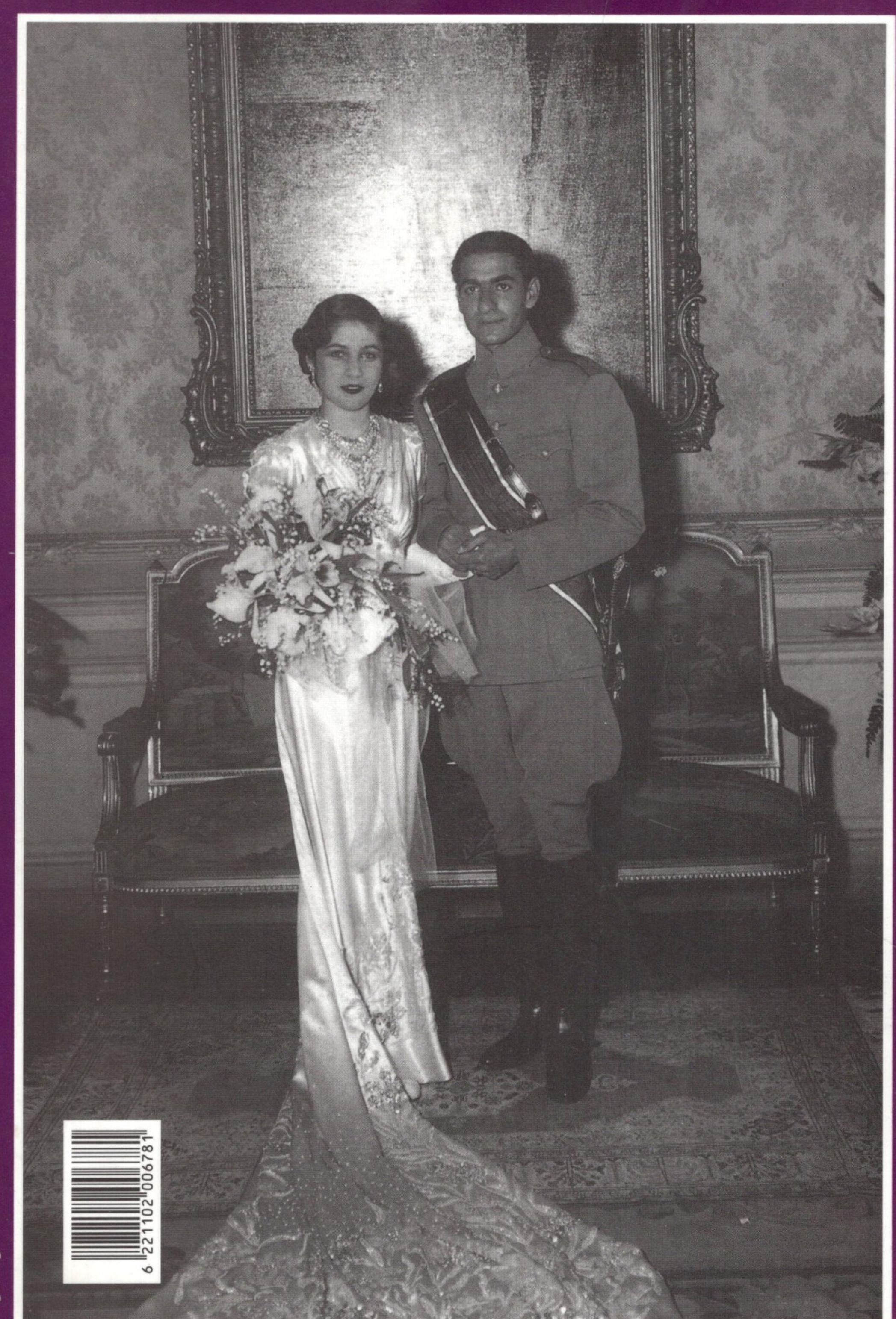
رقم الإيداع ٢٠٠٠/٨٧٦١

الترقيم الدولى 3 - 0643 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت ص ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الغلاف للفنان حلمى التونى